

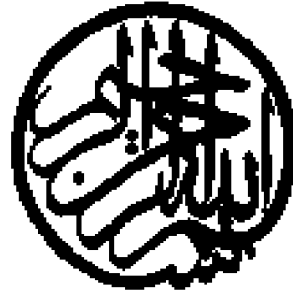
صفحات جديدة من التاريخ الإسلامي

الأصول التاريخية للمسلمين في البلقان

د. نهائي شوقي عبد الرحيم

دار العالم العربي

DAR AL-AALAM AL-ARABI



٢ شارع امتداد رمسيس (١) - مدينة نصر - القاهرة

تليفاكس: ٢٤٠٥١٤٩٨، ٢٤٠٢٤٦١٢

e. mail: af _ madkour @ yahoo . com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: ٢٠١٠ م / ١٤٣١ هـ

رقم الإيداع: ٢٢٤٨٩ / ٢٠٠٩

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٤٩٥-٠١٧-٩

الفهرس

9

- المقدمة

الفصل الأول: الدولة العثمانية في البلقان والدور الأوروبي الجديد

19

- فجر الدولة العثمانية

23

- جهود العثمانيين في إرساء دولتهم (عصر السلاطين العظام)

28

- الوحدة الصقلبية ومقاومة العثمانيين

32

- البوسنة والسيطرة العثمانية

35

- الحكم العثماني في البوسنة

40

- التنافس الأوروبي حول أملاك الدولة العثمانية

45

- ثورة اليونان ضد الحكم العثماني، والدور الأوروبي الجديد

- حرب القرم، ومرحلة جديدة للتنافس الدولي حول الدولة

48

العثمانية

52

- معاهدة باريس عام 1856 وتحجيم الدور الروسي في البلقان

- 54 - المعالجة الأوروبية لمسألة الصرب
- 65 - البلقان على مشارف الحرب العالمية الأولى
- 68 - معاهدة بوخارست، والمرحلة قبل الأخيرة في استقلال
البلقان
- 69 - الصراع بين دول البلقان
- الفصل الثاني: نهاية النفوذ العثماني في البلقان
- 75 - اشتراك الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى
- 79 - معاهدة سيفر، وتعيين الحدود التركية الجديدة
- 81 - معاهدة لوزان، ونهاية الدولة العثمانية
- 84 - أوضاع المسلمين في البلقان تحت الحكم المسيحي
- 84 - المسلمون في بلغاريا
- 88 - مراحل تنويب الأقليات المسلمة في المجتمع البلغاري
- 94 - الحرب العالمية الثانية ونتائجها على أحوال مسلمي البلقان
- 99 - رد فعل حكومة أنقرة
- 102 - المسلمون في البوسنة والهرسك تحت الحكم المسيحي
- 106 - سيطرة الشيوعيين على الحكم واستمرار معاناة المسلمين
- 113 - المراجع

مقدمة

تزامن إعداد هذه الدراسة عن الأصول التاريخية للمسلمين في البلقان مع فترة حاسمة من تاريخها إثر تداعى النظام الشيوعى العالمى، وتفكك دولة يوغسلافيا تبعًا لذلك، واتجاه ولاياتها نحو الاستقلال وتعزيز القوميات.

وهكذا جاء طرح هذه الدراسة للإمساك بداءةً بالحيط الرفيع الذى يربط تاريخ منطقة البلقان منذ الفتح العثمانى لها فى القرن الرابع عشر بعد سقوط القسطنطينية - عاصمة الإمبراطورية البيزنطية - وخضوع الولايات المسيحية تبعًا للنفوذ العثمانى، حتى بداية تراجع هذا النفوذ. وقد اختلف توجه كل منطقة بها نحو الحكم الجدد نظرًا لأن منطقة البلقان تعتبر صورة فريدة لتداخل القوميات والعرقيات والديانات المختلفة، ليس من الناحية الدينية فقط، بل من الناحية السياسية أيضًا.

ومنذ وجود الإمبراطورية البيزنطية، كانت تلك القوميات تتلقى الدعم والتأييد المادى والمعنوى من الدول الأوربية الكبرى، فكان

الكروات يتطلعون إلى إمبراطورية النمسا والمجر الكاثوليكية، وكان سلاف الصرب يتلقون الدعم من الإمبراطورية الروسية التي كانت تعتبر نفسها حامية الأرثوذكس ووارثة النفوذ البيزنطي في العالم.. وهناك قسم آخر كان يحرص على تجنب الانضمام إلى الكنيستين الشرقية والغربية رغم الضغوط والإغراءات، وهم البجناق - أو البشناق - أهل البوسنة والهرسك الذين يدينون بعقيدة البوجومالية التي ترفض تأليه المسيح أو عبادة الصليب وغيرها من المعتقدات المسيحية، وتقرب من الدين الإسلامي نتيجة أصولهم التاريخية في أراضي الفولجا.

وكانت ولاية الصرب من أقوى ولايات الإمبراطورية البيزنطية، وتوسعت بالتعدى على جيرانها، مترسمة نهج بيزنطة الثقافي والسياسي. ومن جماع هذا، جاء تأثير هذه المناطق بالنظام العثماني العسكري بعد حقبة حكم السلاطين العظام، وإن استمرت الدولة في المحافظة على حدودها التي تشمل البلقان وشبه جزيرة المورة وبسارابيا والقرم، كما ضمت معظم المجر والنمسا. وحرص السلاطين العثمانيون على إرسال أخبار فتوحهم وانتصاراتهم العسكرية في أوروبا إلى حكام العالم الإسلامي لاكتساب مكانة معنوية رفيعة، كما استند السلاطين في إضفاء الشرعية على أحكامهم إلى فتاوى علماء الدين والمشايخ الذين تمتعوا بمركز متميز في الدولة الإسلامية.

ونَخلُصُّ من دراسة أحوال الشعوب المسيحية تحت الحكم العثماني إلى

أنهم وجدوا إمكانية تحرك كبير، حتى إنهم فضلوا حكم العثمانيين على حكم النظام الأوروبي الإقطاعي الذي كان يمتلك فيه الإقطاعي الأرض ومن عليها من البشر، بعكس النظام الإقطاعي العثماني الذي كان طرفاً الإقطاع فيه يخضعان للحكم المركزي في العاصمة إستانبول على قدم المساواة، وكان صاحب الإقطاع دائماً مشغولاً في الفتوح العسكرية أغلب العام، تاركاً إدارة إقطاعيته إلى سكانها، وهو ما خلق لديهم إحساساً بالذاتية. هذا إضافة إلى أن نظام العثماني لم يفرق بين رعايا الدولة إلا في مدى كفايتهم والتزامهم بأحكام الدولة، ولم يكن العرق حائلاً دون وصول العثماني إلى أعلى مراكز الدولة، فنجد منهم من وصل إلى منصب القيادة العسكرية، بل إلى الصدارة العظمى أيضاً.

وقد بدأت معاناة الدولة العثمانية من بعض رعاياها المسيحيين إثر انتهاء الحروب الدينية في أوروبا ونهاية فترة التنافس الأسرى بين ملوكها، كأسرتى «القالوا» في فرنسا و«الهابسبرج» في النمسا والمجر، وكذلك بعد بداية عصر النهضة الصناعية.

وأخذت النمسا على عاتقها مهمة منازعة الدولة العثمانية - رغم المعاهدات المعقودة بينهما - لوجود حدود مشتركة، وكذلك لتداخل القوميات، إضافة إلى سابق وضعها كحليفة للكروات الكاثوليك.. كما تبنت روسيا التي تقوّت عسكرياً مع بداية القرن التاسع عشر وخرجت من دائرة كونها دولة شبه آسيوية إلى دولة تنتمي إلى القارة الأوروبية،

فاتجهت إلى معاداة الدولة العثمانية بعد أن نجحت في الحصول على أول معاهدة رسمية بحقوقها في حماية أرثوذكس الدولة، وإن سعت أيضًا إلى حق السدانة على الأماكن المقدسة المسيحية في فلسطين، هذا إلى جانب تطلعها الدائم للوصول إلى المضائق العثمانية، والدخول في المياه الدفيئة بالبحر المتوسط.

وكان اتجاه روسيا ذاك مدعاةً لتوجس بريطانيا خشية منافسة روسيا في مناطق نفوذها البحرية، وكذلك فرنسا التي كانت تدعى حقًا قديمًا في السدانة على الأماكن الدينية في فلسطين منذ الحروب الصليبية.

ولما كانت الدولة العثمانية القوية تهيمن على الطرق البحرية، وتتحكم في الموارد الاقتصادية للشعوب المسيحية، فقد تكونت العصبة الصقلبية المسيحية بتأييد من البابوية في روما، وكذلك من الصرب والجبل الأسود وجزر اليونان، وأيضًا من الموانئ الإيطالية التجارية؛ لشن هجمات عسكرية على الطرق البحرية للدولة العثمانية واستخلاص بعض الولايات المسيحية التابعة لها، وكانت ثورة اليونان رائدة في هذا الاتجاه حتى حصلت على حكمها الذاتي، الأمر الذي شجع بقية الولايات الأخرى على الثورة. وكان افتعال المذابح البشرية بين المسيحيين إحدى وسائلها لاستقطاب شعوب العالم المسيحي بدفع حكوماتهم للتدخل لصالحهم لدى الباب العالي، رغم اتجاه الأخير إلى الأخذ ببعض النظم الدستورية الحديثة في حكمه، وإن كان على مضض!

وتمثل حرب القرم (1853 - 1856) بين الدولة العثمانية وروسيا صورة معبرة عن نوعية التنافس الأوروبي الدولي.. وذلك عندما اشتركت أساطيل كل من بريطانيا وفرنسا إلى جانب الأسطول العثماني والأسطول المصري ضد الإمبراطورية الروسية رغم وجود اتفاقيات بين بريطانيا وقيصر روسيا، ولكن خشية بريطانيا من التفوق الروسي الذي يستند إلى تأييد الصرب في البلقان دفعها إلى تجاهل معاهداتها مع روسيا.. وإن حرصت بريطانيا على عدم القضاء التام على قوة روسيا البحرية لتستمر كقوة ضاربة تهدد الدولة العثمانية وتستنفذ جهودها العسكرية. ويذكرنا هذا الدور البريطاني بموقف الولايات المتحدة الأمريكية في أوائل التسعينيات من القرن العشرين الميلادي عندما تدخلت بجانب دولة الكويت لتحطيم القوة العراقية الباغية في معارك الخليج التأميرية، وإن أبقت على وجود حاكم العراق على رأس دولته ليبقى دائماً سيفاً مُضَلَّتاً على دول الخليج بما يتيح للولايات المتحدة أن تهيمن عليها سياسياً واقتصادياً، وكأن الزمن لم يغير أسلوب المستعمر رغم مرور قرن ونصف القرن!

وكانت معاهدة 1878 التي فُرضت على الدولة العثمانية بداية لمرحلة جديدة من التنافس الدولي، خاصة بعد ظهور ألمانيا الموحدة كقوة واعدة، إذ استقلت بمقتضاها الولايات المتحدة المسيحية، فحصلت بلغاريا على استقلالها، واستولت النمسا على البوسنة والهرسك، وخضع المسلمون الأتراك لأول مرة لحكم المسيحيين بعد أكثر من 500 عام على إنشاء

دولتهم. وفي الحرب البلقانية (1912 - 1913) قررت معاهدة بوخارست عام 1913 حصول رومانيا على إقليم دبروجة الذي كان في حوزة بلغاريا، كما استولى الصرب على درواز وموناستر من بلغاريا اللتين سبق أن أخذتهما من الدولة العثمانية، وارتفع الستار عن مجموعة متشابكة من الاتجاهات الاستعمارية والخلافات العرقية والكبرياء القومى والسياسى بين شعوب المنطقة، وتخلت بريطانيا عن سياساتها التقليدية فى الحفاظ على أملاك الدولة العثمانية، مما شكل خطراً على مخططاتها المستقبلية المرجوة فى منطقة الشرق الأوسط. وهكذا استمرت المسألة الشرقية التى بدأت مع مؤتمر فيينا عام 1815.. ذلك المؤتمر الذى أنهى مكاسب «بونابرت» على القارة الأوروبية، واشتمل جدول أعماله على تصفية الإسلام فى أوروبا لتكون من بعدُ نهجاً فى السياسة الأوروبية.

وباشتعال الحرب العالمية الأولى وهزيمة الدولة العثمانية، تبارى الحلفاء فى تفتيت أملاك الدولة المنهارة وتحديد من هم ورثة الرجل المريض. وجاءت بنود هدنة مودورس عام 1918 لتكريس أوضاع الحلفاء، ثم قامت معاهدة سيفر - أغسطس 1920 - برسم حدود الدولة بحيث لا تمتد إلى أبعد من الأناضول وجزء من تراقيا الشرقية والعاصمة إستانبول. وفى معاهدة لوزان - سنة 1924 - بين تركيا والحلفاء، تم تنازلها عن جميع ولاياتها المسيحية والعربية، وسمحت المعاهدة بهجرة الأتراك من البلقان، والمسيحيين من دولة تركيا الحديثة، وضاعت حقوق الأقليات المسلمة تحت الحكم المسيحى الجديد، خاصة بعد إعلان «أتاتورك» شعار "سلام

في الداخل وسلام في الخارج"، وتجاهل حقوق المسلمين والأتراك لدى حكومات ما زالت الضغائن وكراهية العثمانيين تملأ جوانحهم.

وقد تباينت سياسات هذه الدول في تزويد الأقليات المسلمة في مجتمعاتها، سواء بالترغيب أو التهيب، إلى حد القتل الجماعي أو التهجير بالقوة، أو بمحاربتهم في أرزاقهم وأموالهم ودفعهم إلى تغيير عقيدتهم الدينية حتى يحصلوا على امتيازات الرعاية. ولما فشلوا في إنهاء الوجود المسلم لديهم، سعوا إلى حكومة تركيا لعقد اتفاقيات جديدة لكي يستبعدوا الأتراك والمسلمين جميعاً من البلقان، وعندما رفضت الأقليات المسلمة ذلك، زاد تعسفهم. ولم يختلف نظام الحكم في البلقان، سواء النازي إثر الحرب العالمية الأولى، أو النظام الشيوعي بعد الحرب العالمية الثانية، وإن عمد الشيوعيون إلى الإعلان عن رفضهم كل الأديان، ولكن التعصب كان عنيفاً ضد المسلمين بعكس الأطراف الأخرى؛ إذ كانوا يخشون غضب الدول الأوروبية وخوفها على المسيحيين من الكروات والصرب.

ومما يؤسف له أن الشعوب الإسلامية آن ذاك كان أغلبها يقع تحت أنظمة شمولية تقترب من الشيوعية، فتجاهلت معاناة المسلمين في البلقان، إلا بعض أصواتٍ قد ارتفعت في باكستان وتركيا لمناصرة إخوة الدم، ولكنها لم تثمر نتيجة إيجابية.

وبعد انهيار الشيوعية العالمية، سعت ولايات البلقان إلى الاستقلال

الذاتى، وأيدتها الدول الأوروبية، حتى جاء إعلان البوسنة والهرسك لاستقلالها، فثارت النزاعات العنصرية القديمة، وتشابكت المصالح الدولية، وقام الصرب - الذين يضمون أملاك الدولة اليوغسلافية المنهارة وترسانة أسلحتها - بإحياء ما يعرف بصربيا الكبرى وإعلان الحرب على البوسنيين، ووقفت الدول الأوروبية عاجزة عن التدخل لوقف تعديات الصرب على مسلمى البوسنة والهرسك الذين يشكلون 45% من عدد السكان وبجانبيهم بعض الكروات.

وتكونت عصبة أوروبية جديدة لا تختلف كثيرًا عن العصبة البلقانية المسيحية التى تصدت للدولة العثمانية فى القرن السابع عشر، وتم استرجاع الماضى - الذى يمتد إلى نهاية العصور الوسطى - وتطبيقه بأسلوب دولى حديث لاقتناص بقايا ممتلكات المسلمين والأتراك فى أوروبا.. بل للتصفية البشرية الكاملة لذلك العنصر!

الفصل

الأول

الدولة العثمانية في البلقان
والدور الأوروبي الجديد

فجر الدولة العثمانية

ينتمي العثمانيون إلى الجنس الطوراني بوسط آسيا، وتوطنوا بين
ظهراني التركمان وفيما وراء بحر الخزر، كما توطن قسم منهم في خازندار
وفي أذربيجان وآران صوب قفقاسيا، وامتزجوا مع قبائل تركية أخرى⁽¹⁾
كانت مشتتة في دويلات قبلية منذ القرن التاسع الميلادي حتى دخل إليهم
الإسلام عندما اعتنقه شعب البلغار (الفولجا) إحدى الدويلات القديمة
في آسيا الوسطى. وتوالى انتشار الإسلام، فاعتنقه القرصانيون
والسلاجقة والقرز، ويذكر المؤرخون أن اسم «تورك» أطلق على الأتراك
المكونين لشعوب الدويلات التي سميت بالكونلوتورك، وكانت اللغة
العربية سبباً في نشر كلمة تورك باعتبار أن الأتراك كانت لهم علاقة قديمة
مع العرب ترجع إلى ما قبل الإسلام.. ثم جاء الإسلام ليحدد هوية
الأتراك⁽²⁾.

ويمثل العثمانيون أحد بطون قبائل «قاي» التركية، وهي القبائل التي

(1) محمد فواد كوبرلي، قيام الدولة العثمانية، الألف كتاب الثاني 119، ص 11، 1993.

(2) أكمل الدين إحسان، مقال بعنوان «العثمانية الجديدة: إلى أين تتجه تركيا؟»، صحيفة الأهرام، العدد

نزحت إلى آسيا الصغرى في الحقبة المعاصرة لدخول السلاجقة الأناضول وتفرقوا في أماكن عديدة، حيث نجد الكثير من قرى الأناضول تحمل اسم قبيلة قابى في شمال الأناضول وأذربيجان وصوشهرى، وفي أقاسيا وجوروم وكره ده بولى، وأيضًا في أسكى شهر وجنوب الأناضول. وكان السلاجقة يهدفون من وراء توطين القبائل إلى تحطيم التساند القبلى عن طريق سياسة التفتيت، ثم توطينهم في مناطق متفرقة؛ ولذلك فقد حملت العديد من القرى الأسماء ذاتها، مثل «قتق» و«افشار» و«بانيدر» و«بايات» وغيرها.

ولكن يتعين في بداية بحث ظهور العثمانيين وأدوارهم المختلفة في إنشاء إمبراطورية عظيمة الاتساع والتقدم، التعرض قليلاً لأوضاع السلاجقة في الأناضول؛ إذ ساهمت في مساندة جهود العثمانيين من الجوانب السياسية والاجتماعية، وكذلك في منازلة البيزنطيين بمناطق الحدود، حيث كانت المواجهة مستمرة بين الطرفين، ولذلك أسسوا تشكيلات عسكرية مثل باقى حكام الحدود الأتراك، وقاموا بدور منفصل عن السلاجقة في محاربة البيزنطيين. وكانت مناطق الحدود - سواء البرية أو البحرية - بمثابة درع واقٍ للسلاجقة في مختلف مراحل صراعهم مع البيزنطيين⁽¹⁾.

هذا، إضافةً إلى أن السلاجقة نجحوا في الاستيلاء على أنطاليا

(1) محمد فؤاد كوبرلى، مرجع سابق، ص 120.

وسينوب، وأصبح لهم منفذان تجاريان هامان على البحر المتوسط والبحر الأسود، فسيطروا على الناحية الشرقية والغربية منها.

وقد وقع في بداية القرن الثالث عشر حادثان خطيران في المنطقة، كان أولهما سقوط الإمبراطورية البيزنطية تحت ضربات الحملة الصليبية الرابعة التي حولت اتجاهها من الشرق الإسلامي لضرب البيزنطيين وإسقاط إمبراطوريتهم، حتى تمكنوا من السيطرة على نيقية وجعلوها عاصمة لهم، وقامت لهم أيضًا دولة في طرابزون وإن كان دورها ضئيلاً في أحداث الأناضول، بعكس إمبراطورية نيقية التي كانت حائلًا دون توسع السلاجقة نحو الغرب⁽¹⁾ ومحاربة اللاتين المسيطرين آن ذاك لإعادة تكوين الإمبراطورية الأرثوذكسية المنهارة.

وقد بدأ استقرار دولة العثمانيين بعد ضعف السلاجقة وانحيار نفوذهم بسبب الغزو المغولي وتهميش دورهم القيادي في المنطقة منذ أواخر القرن الثالث عشر تقريبًا، وهذا على الترجيح هو المنطق الأقرب إلى الصواب، فكان تسلسل تلك الأحداث التاريخية وما أدى إليه من نتائج، وراء وجود العناصر العثمانية في منطقة أسكى شهر بعد أن ساندوا سلطانها في أحد معاركه الحربية مع البيزنطيين، فمنحهم جزءًا من أراضيه⁽²⁾ ليؤسس منطقة حماية وردع له⁽³⁾ من أمراء قونية ومن الإيلكانيين المغول، ومن ثم نشط «أرطغرل» وبدأ امتداده نحو الشمال الغربي في الأناضول.

(1) المرجع السابق، ص 62.

(2) إبراهيم رزقانة، الجغرافيا الإقليمية للعالم الإسلامي، (تركيا: الدراسات الإسلامية)، ص 3.

(3) محمد رفعت ومحمد حسن حسنة، معالم التاريخ من العصور الوسطى، مطبعة مصر، ج 1، ص 227.

وقد تمكن العثمانيون من الامتداد أثناء فترة الهدوء التي سادت بين السلاجقة والبيزنطيين المنهارين نظرًا لاختلاف اتجاه النشاط السياسى لهما؛ فالروم استهدفوا اللاتين، على حين كان السلاجقة يعادون المغول، حتى إن وجودهما على الساحة مشتركين كان يحقق توازنًا سياسيًا في المنطقة، بل كان تعاونهما الفعلى ضد خطر المغول الذين نجحوا في السيطرة على أمراء الأناضول المستقلين إلا من تبعية دفعتهم إلى التقرب من الحاكم المغولى الجديد ومعاودة بعضهم لبعض. كما اشتعلت المنطقة بجهود الطرق الصوفية التي استغل رؤساؤها طبيعة الظروف الاقتصادية المنهارة، وقيام التنافس بين الحضر والبدو، فاتخذوا من الشعارات الدينية أسلوبًا للتغلغل والسيطرة. وأفادت القوى المحلية من ضعف النفوذ السلجوقى، وقامت قوى جديدة مع بداية القرن الرابع عشر أضعفت الإدارة الإيلكانية، وكان العثمانيون من بين هذه المحليات التي أفادت من نهاية السلاجقة، وأعدوا أنفسهم لوراثة دورهم في حماية الوجود الإسلامى بالمنطقة.

كما أدى التوسع المغولى إلى دفع السكان للهجرة من المناطق التى غزاها إلى أنحاء الأناضول المختلفة، وتداخل المغول أيضا في الكيانات العسكرية التركية بعد ذلك، فعمل الكثير منهم في الجيوش التركية المستقلة. وطوال هذه الحقبة، كانت هجرات البيزنطيين مستمرة إلى المناطق الساحلية بعيدًا عن الأناضول، واستولى الأتراك بالتدريج على مدنهم وقراهم بالأناضول.

جهود العثمانيين في إرساء دولتهم (عصر السلاطين العظام)

لا يمكن إغفال دور القيادات العثمانية التي تسلمت الأمور وخطورة دورهم في تأسيس الإمبراطورية التي عاشت أكثر من ستة قرون محتفظة بالسلطنة وراثية بين آل عثمان، كما نجحت في تجنب الصراعات الأسرية في وراثة العرش، وهكذا امتدت من بودابست حتى مكة المكرمة، ومن مصر العليا حتى البحر الأسود، ومن الخليج العربي في الشرق إلى الجزائر في الغرب، ومن جنوب روسيا في الشمال إلى السودان في الجنوب. وتوغلت هذه الإمبراطورية في قلب أوروبا الشرقية، وحكمت المجر قرناً ونصف القرن من الزمان، وهددت أسوار فيينا⁽¹⁾. ولم يكن للقب "عثماني" أي مدلول قومي في أرجاء الإمبراطورية، بل كان نهجاً للدولة في الإدارة والحكم منذ وفاة «عثمان» سنة 1326م. وكان من حظ العثمانيين أن مُني «جنكيز خان» بالهزيمة وبدأ في التراجع عن آسيا الصغرى⁽²⁾.

وتدفق العثمانيون صوب أراضي البلقان⁽³⁾، وبدأت المواجهة ضد الصرب التي كانت تمتلك مقومات قوة تضعها في مصاف الوريث للإمبراطورية البيزنطية، لولا السبق العثماني⁽⁴⁾. وكانت الصرب تتبع

(1) إبراهيم رزقانة، المرجع السابق، ص 16.

(2) موفق بن المرجه، صحوة الرجل المريض، مؤسسة صقر الخليج للطباعة والنشر بالكويت، ط 1، 1984، ص 4.

(3) عماد جميل بيهم، فلسفة التاريخ العثماني، دار الصيادي، 1945، ص 9.

(4) بول كولنز، العثمانيون في أوروبا، ترجمة عبد الرحمن الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993، ص 30.

الإمبراطورية البيزنطية، وتقع بين مقدونيا والمجر. وقد تمكنت خلال ضعف بيزنطة من مهاجمتها وضم مناطق البوسنة والهرسك وكرواتيا والشاطئ الشمالى للدانوب، وجعلت من بلغاريا كيأنا تابعأ لها، كما استولت على تراقيا وأبيروس التى تقع جنوب ألبانيا ومنطقة سالى، وهكذا وصلت الصرب بحدود ممتلكاتها إلى سواحل البحر المتوسط المواجهة لمنطقة كوزوفو، وذلك فى عهد ملكها «استيفان روستى» الصربى (1331- 1335) الذى حرص على اتباع أسلوب الإمبراطورية البيزنطية فى حكم الدولة سياسياً ودينياً وإدارياً، فأعاد تنظيم الكنيسة الصربية لدعم نظامه الجديد، وأبقى على اللغة اليونانية فيها كلغة رسمية للإدارة⁽¹⁾. ومع اتساع الدولة الصربية الجديدة وسيطرتها على مناطق تتبع نبلاء وإقطاعيين وطنيين، عجز «استيفان» عن تكوين جيش قوى لمواجهة المقاومة الداخلية لحكمه، بجانب استفحال المخاطر الخارجية ضده، كما ساهم تعدد الطرق التى تخترق الصرب فى جعله هدفاً لغزوات خارجية مستمرة، حيث نجد هناك ممرين هامين للتجارة والمواصلات، أحدهما يمتد من الشرق إلى الغرب، أى من راجوسا - «دوبرفنيك» حالياً - عبر نهر سوفى بازار ونيس وصوفيا وفيلوبوس وأدرينول - «أدرنة» حالياً - حتى يصل إلى القسطنطينية. والطريق الآخر يمتد من الشمال إلى الجنوب، وهو عمر «مورافا - فادر»، ويربط بلجراد ببحر إيجه عند سالونيك. وكان مؤدى هذا أن القوى المتاخمة لدولة الصرب وجدت أكثر من مدخل لضرب

(1) بول كولنز، المرجع السابق، ص 31.

الدولة الصربية الناشئة، كما أدى وصول العثمانيين لحدود الصرب إلى إيجاد منطقة عازلة للقسطنطينية حالت دون سقوطها تحت سيطرة الصرب.

أصبح استمرار بقاء الإمبراطورية البيزنطية رهينًا بالصراع العثماني - الصربي، كما أن استيلاء العثمانيين على العاصمة البيزنطية سيؤدي للقضاء على الصرب، وكذلك فإن القضاء على الصرب كان مفتاحًا لغزو القسطنطينية، ومن هذا المنطلق دار الصراع بين العثمانيين والصرب حتى تمكن «أورخان» من هزيمة الصرب عند نهر ماريتزا عام 1371م، واستولى على بروصة واتخذها مقرًا لحكمه، ثم استولى على نيقوميديّة ونيقيا⁽¹⁾، وأمضى نحو عشرين عامًا من حكمه في تثبيت نفوذه بالمناطق المفتوحة، معلنًا حركة إصلاحات كبيرة في البلاد بحيث يقبلون نظريات الأفلاطونية الحديثة ووحدة الوجود وأقوال المتأثرين بها كـ «السهروردي» و«ابن عربي» و«صدر الدين القنوي»، إلا أنهم كانوا محتفظين دائمًا بالمذهب السني ولم يقبلوا المذهب الشيعي بأية صورة، تمامًا كأسلافهم السلاجقة⁽²⁾. وقد قامت الطرق الصوفية - وعلى رأسها في الأصول كانت المولوية والرفاعية والخلوتية - بدور مضاد لجماعات الهرطقة، ودعت إلى التبشير بالدين الإسلامي، وسلكت الطريقة الرفاعية الجانب الشعبي في

(1) تهاى محمد شوقى عبد الرحمن، نشأة دولة تركيا الحديثة 1919-1938، رسالة دكتوراه، جامعة المنيا 1988م، ص 3.

(2) محمد فؤاد كوبريلى، مرجع سابق، ص 153.

إنشاء العديد من التكايا لإعانة الفقراء والمساكين، ثم تقاربت مع فرق "الأخيان" التي استقطبت الصناع والزراع. وقد حرصت هذه الفرق الشعبية على الشُّنَّة وإن تعلقَت ببعض التقاليد الوثنية الموروثة، كما حرصت أيضًا على عقائد غلاة الشيعة مبسَّطة على نحو شعبي، مع تغطية الجميع بغلالة صوفية.

وإضافةً إلى إقامة النظام العسكري الجديد، نجح «أورخان» في إجبار الملك الصربي «لازار» على الخضوع للدولة العثمانية عام 1374م (745هـ) ودفع الجزية. ولا شك أن توسع العثمانيين في البلقان كان ضرورة أمنية قبل التوسع في الأناضول ذاتها - إضافةً إلى أهميته - لإقرار عمليات التوطين العثمانية المنظمة، ولم يكن بغرض التدمير والمعاداة⁽¹⁾.

وكان من أعظم أعماله المتعددة، إنشاء نظام الإنكشارية العسكرية الذي أصبح لفترة طويلة عماد ودرع الدولة العثمانية، ومصدر فزع وإرهاب عند الأوروبيين. ويعارض المؤرخ «محمد فؤاد كوبريلي» مفهوم المؤرخين الأجانب - وعلى رأسهم «جيبونز» - في أن ظهور نظام الإنكشارية، ووضع نظام الدوشيرمة الذي يجبر أولاد مسيحيي البلقان على اعتناق الإسلام وإعدادهم عسكريًا ليعملوا جنودًا إنكشارية، كان الغرض منه نشر الإسلام بالقوة ولم يكن يراد به تشكيلٌ لتقوية الجيش العثماني، محاولًا إعطاء مفهوم ديني خالص لنشأة الدولة العثمانية، واعتبار

(1) محمد فؤاد كوبريلي، مرجع سابق، ص 31.

الفصل الأول: الدولة العثمانية في البلقان والدور الأوروبي الجديد

أن هذا الاتجاه قد أظهر جنسًا جديدًا هو الجنس العثماني. وما يضعف هذا المفهوم المغلوط لدى المؤرخين الأجانب، أنه طوال الفترة السابقة للعثمانيين، لم ينتشر الإسلام في الولايات المسيحية التابعة للسلاجقة بصورة كبيرة، حتى إن الكاتب التركي «ألفسر - آي» أورد في كتابه «أن الجزية التي كانت تُجبي من نصارى الأناضول كانت تكوّن قسماً هاماً من إيرادات الدولة، وذلك في القرن الثالث عشر. وقد عاصر العثمانيون هذه الحقبة التاريخية الهامة، ولم يظهر جديد حتى يلجئوا إلى مخالفة أسلافهم في أهم مبادئ دولة السلاجقة وأسلوبهم في احترام حرية العقيدة الدينية وعدم فرض الإسلام بالقوة على الرعايا.

ولكن بالنظر إلى الأوضاع الجديدة التي استقرت في الأناضول بعد انسحاب الكنيسة الأرثوذكسية من الصدارة الدينية وضعف هيمنتها الدينية، بدأ الدخول في الدين الإسلامي بين النصارى الروم - وبخاصة في الأراضي العثمانية - لأسباب سيكولوجية، وكذلك للتخلص من التكاليف. وقد استند المؤرخون الغربيون في رؤيتهم السالفة، إلى البيان الذي أعلنته البطريركية البيزنطية في نيقية سنة 1329 - 1340م بأن حركة الإسلام كانت واسعة إلى حدٍّ ما. ولا يدعونا هذا البيان إلى تحميله أكثر من مضمونه الحقيقي. والمرجح أن نيقية كانت من الدول التي خرج منها الروم بعد انسحاب عاصمتهم إلى بيزنطة حتى أصبح أغلبية السكان من الأتراك المسلمين. وقد رد كثير من الترك آن ذاك على البيان البيزنطي بأن مدناً وقرى كثيرة استمرت على نصرانيتها، وكذلك لم يُشر الرحالة «ابن

بطروطة، في كتاباته عند مروره بالمنطقة إلى قلة عدد النصارى. وقد استمسك العثمانيون بالشّنية في عقيدتهم الدينية كأسلافهم، وأعانت⁽¹⁾ المدارس والطرق الصوفية التي بدأت تتكاثر في القرن الثالث عشر على تقوية هذا النظام بوجه عام.

الوحدة الصقلية ومقاومة العثمانيين

بدأت جهود الملك الصربى تتجه نحو قيام حلف أوروبى - مسيحي للتصدى للعثمانيين، ووضحت أهمية إيجاد مقاومة مشتركة وتعاون بين الصرب والبوسنة، وسعى الملك «لازار» إلى التقرب لأمرأء الصرب المعارضين لحكمه ولتوسعته السابقة، ونجح في إيجاد تحالف عسكرى معهم ومع «تفرنكو» ملك البوسنة، وضم أيضًا جيشُ الحلفاء جنودًا من البلغار والأرناؤوط، واشترك ملك البلغار بنفسه في ذلك الجيش، وكان هذا بداية لما عرف بالوحدة الصقلية، واستهدف الجميع - رغم خلافاتهم المزمّة - طرد العثمانيين من الأناضول. ومن الجانب الآخر، نجد أن السلطان «مراد الأول» - الذى تولى بعد «أورخان» وحكم حوالى 29 عامًا، وانتقلت العاصمة في حكمه إلى أدرنة التى استولى عليها من البيزنطيين - نجده ينتهج سياسة التفرقة بين عناصر هذا الاتحاد الصليبي بأن يستميل بعضهم بالترغيب مرة وبالترهيب أخرى، هذا إضافةً إلى التحريك العسكرى لمواجهة ذلك الحلف، والزحف نحو بلغاريا

(1) محمد فؤاد كوبريلى، مرجع سابق، ص 10.

والاستيلاء على عاصمتها طرْقونا بعد أن فر ملكها إلى نهر الطونة (الدانوب) وأقام بقلعة حصينة. واستمر «مراد الأول» في مطاردته حتى أعلن انقياده للدولة. ونجحت الضربة العثمانية الأولى نحو الوفاق الصليبي - الصربي. وحرص «مراد» على إيجاد علاقة متسامحة مع ملك البلغار، فعينه واليًا عثمانيًا على بلغاريا⁽¹⁾.

ورغم ذلك تكوّن تحالف مسيحي جديد بتحريض من البابا «أوربان الخامس» تحت رئاسة «لايوشى» الأول ملك المجر و«أوروش الخامس» ملك الصرب و«تفرتكو» ملك البوسنة والأمير «باسارت» والأمير «لايكون» من الرومانيين لمحاربة المسلمين، واتجه جيش التحالف نحو أدرنة - عاصمة الدولة العثمانية آن ذاك - بقوات تبلغ من 60 ألفًا إلى 100 ألف مقاتل، وتصادف في تلك الأثناء مرور قوة عثمانية استكشافية بقيادة الحاج «إيلي بك»⁽²⁾، ورغم قلة عدد هذه البعثة، فقد باغتت الجيش المسيحي بهجوم ليلي مفاجئ أثار عنصرًا المفاجأة فيه الفرع بينهم، فراحوا يضربون بطريقة عشوائية، وغرق من حاول الفرار منهم في نهر مريج، واستطاع ملك المجر النجاة بصعوبة، وأسفر ذلك النصر العثماني عن الوجود الفعلي للعثمانيين في البلقان بعد هزيمة الجيش المسيحي المشترك. وتوغلت الجيوش العثمانية حتى وصلت في أوروبا إلى صوفيا. وقد قُتل السلطان «مراد» بعد الحرب على يد صربي طعنه بخنجر مسموم⁽³⁾. وأنهى

(1) محمد حرب، البوسنة والهرسك من الفتح حتى الكارثة، ص 14.

(2) محمد حرب، مرجع سابق، ص 7.

(3) محمد حرب، مرجع سابق، ص 49.

الانتصار العثماني تمامًا الوضع المستقل للصرب، ثم بدأ غزو الأفلاق والبغدان والأرناؤوط واليونان والبوسنة.

وتولى بعد «مراد» ابنه «بايزيد الأول» (الصاعقة) سنة 1389م، وقاد الجيش العثماني ضد الحملة الصليبية التي شاركت فيها قوات من المجر وفرنسا وإنجلترا وبولندا وكل من ممالك إسكندنافيا داراجون وفاسليا وفرسان القديس «يوحنا» في رودس بقيادة ملك المجر، وهزمهم «بايزيد الأول» وأرسل الأسرى إلى العاصمة العثمانية، وسارع ملك البوسنة بعرض دفع الجزية ترفاً، كما توغلت جيوش «بايزيد الأول» - الذي حكم في الفترة من 1389 حتى 1402 - وأخضع بلغاريا تمامًا⁽¹⁾. وحصل «بايزيد» أثناء حكمه على لقب سلطان عن طريق السلطان المملوكي «برقوق» من الخليفة العباسي في القاهرة، وأصبحت الإدارة العثمانية سلطنة، وكان هذا تنويجاً شرعياً لواقع العثمانيين⁽²⁾، إلى أن تعرضت بلاده لغزو التتار بقيادة «تيمور لنك»، وهُزم في موقعة أنقرة التي وقعت في 28 من يوليو عام 1403م بعد أن تقابل الفريقان: العثماني بقيادة «بايزيد الأول» والتتاري بقيادة «تيمور لنك»، ووقع «بايزيد» أسيراً في قبضة «تيمور لنك»، ولم يلبث أن توفي في الأسر⁽³⁾. ولكن تهيأت للعثمانيين فرصة النجاح مرة

(1) محمود متولى، الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها بمصر منذ منتصف القرن التاسع عشر، القاهرة 1980، ص 23.

(2) عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1980، ج 1، ص 48.

(3) محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، دار الثقافة والنشر، القاهرة 1976م، ج 1، ص 38.

أخرى بعد وفاة «تيمور لنك» سنة 1405 وتولى «محمد الأول» الذى حاول غزو المجر، ولاقت جيوشه هزيمة بحرية من البنادقة. وتعرضت البلاد العثمانية فى تلك الفترة لبعض الفتن والثورات الداخلية، ولكنه تمكن من السيطرة عليها⁽¹⁾. ولا شك أن الدمار الذى حل بالعثمانيين فى آسيا الصغرى أدى إلى تأجيل فتح القسطنطينية، وانهزت أوروبا تلك الكبوة لكى تعيد تنظيم قواتها المتحالفة، وبالفعل تقدم «إسكندر» عن ألبانيا، و«جون هينادى» عن المجر، للوصول إلى القسطنطينية وفك الحصار العثماني عنها، ولكنهم هزموا فى قوصوه (كوسوفو) وتمكن العثمانيون من إعادة حصار العاصمة مرة أخرى سنة 1448م حتى تم سقوطها سنة 1453م، وتمت السيطرة العثمانية على البحر الأسود، وبدأت استراتيجية جديدة للدولة العثمانية؛ إذ كان لفتح القسطنطينية دلالة سياسية والدينية لوقوع تلك العاصمة فى منطقة استراتيجية هامة فى أوروبا كعاصمة للكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، وإن كان الصراع التقليدى بينها وبين الكنيسة الكاثوليكية البابوية أحد العوامل الهامة لسقوطها فى قبضة العثمانيين على يد السلطان «محمد الثانى بن بايزيد» الملقب بالفاتح. وقد اتسم عهد السلطان «محمد الفاتح» بسنوات العظمة العثمانية، والتوسع فى استخدام الأسلحة الحديثة، وكان له أسطوله الذى يقدر بمائة وعشرين سفينة، وأكثر من ستين عبّارة لنقل الجنود، و14 بطارية مدفع. وبلغ عدد

(1) محمد حرب، المسلمون المفترى عليهم، مجلة «العربي» الكويتية، العدد 244، مارس 1979،

الجيش الذى هاجم القسطنطينية 250 ألف جندى. وقد استمرت معارك الفتح تلك حتى مقتل «باليلاجاس» إمبراطور البيزنطيين وقائده «جستيان»⁽¹⁾، وأطلق على القسطنطينية اسم إستانبول أو إسلامبول؛ أى دولة الإسلام. ولا شك أن كان لهذه الانتصارات أثر معنوى رائع، ليس عند العثمانيين فحسب، بل لدى كل الشعوب الإسلامية التى قدرت تمامًا هذه الخطوة المهمة للعثمانيين وما تبعها من جهود فى إتمام إخضاع بلاد المورة والصرب والبوسنة.

البوسنة والسيطرة العثمانية

حدث أن رفض ملك البوسنة دفع الجزية المقررة عليه للعثمانيين، بل وقبض على رسلهم وزج بهم فى السجون، وكان «محمد الفاتح» يسيطر آن ذاك على سواحل البحر الأسود وعلى التجارة اليونانية والجنوبية النشطة. وإزاء ما حدث من ملك البوسنة، سارع «محمد الفاتح» على رأس جيش مكون من مائة وخمسين ألف مقاتل وفتح عاصمة البوسنة «قلعة باتشا»، وأعدم ملكهم لتحريضه القوى الصربية ضد العثمانيين⁽²⁾.

وبعد تولى «سليمان المشرّع» الحكم، قام بالهجوم على جزيرة رودس عام 1522م وطرد منها فرسان القديس «يوحنا» الذين أخذوا على عاتقهم منذ نهاية الحروب الصليبية مهاجمة سفن المسلمين وعرقلة مواصلاتهم

(1) محمد غنيم، لب التاريخ، 1377هـ ص 174.

(2) بول كولنز، مرجع سابق، ص 32.

الفصل الأول: الدولة العثمانية في البلقان والدور الأوروبي الجديد

التجارية - البحرية، وكانت القرصنة وسيلتهم إلى الغنم والتكسب، فأراد السلطان «سليمان المشرع» - أو القانوني - توفير مناخ يساعد على نجاح حركة التوسعات الجديدة، حيث تمكن من فتح بلجراد في العام التالي وغزو المجر، ثم تقدم في غزوه من الدول الأوروبية.. فقد تميز هذا السلطان - بجانب مجهوداته العسكرية - بأنه كان رائد نهضة أدبية وعلمية من أسمى ما عرفه الترك؛ فقد اقترن هذا وتزامن مع عصر النهضة في أوروبا بعد ظهور الدول القومية الأوروبية ونهاية عصر التشرذم الإقطاعي والانتقال إلى صور التراكم الرأسمالي أساس البورجوازية حين ذاك، كما بدأت تنسحب الهيمنة الدينية البابوية، واشتعلت الصراعات الأسرية الملكية على القارة الأوروبية، ولا سيَّما الصراع بين أسرة البوربون الحاكمة في فرنسا وأسرة الهابسبرج في الإمبراطورية المقدسة بالنمسا والمجر، وانتهت الحروب الإيطالية بينهما بظهور مبدأ التوازن الدولي، ووصل ذلك العداء الأسري أقصاه أثناء الحروب الإيطالية، والتي استمرت في عهد ثلاثة ملوك فرنسيين، حتى إنه عندما أسر الإمبراطور الإسباني «شارل الخامس» الملك «فرنسوا الأول»، لجأت والدته إلى السلطان العثماني «سليمان المشرع» لكي يقوم بمهاجمة الإمبراطورية النمساوية، خاصة أنها كانت تهاجم رجال البحر المغاربة في الحوض الغربي للبحر المتوسط، ومن ثم انطلق السلطان حتى وصل إلى أسوار فيينا، مستعينًا بالميناء الفرنسي طولون الذي منحه إياه الملك الفرنسي ليكون قاعدة عسكرية له أثناء ضرب الجيش النمساوي. وعقدت بين

السلطان والمملك «فرنسوا الأول» اتفاقات تجارية على شكل تحالف دفاعي هجومي بين الدولتين، واشترك الحليفان في مهاجمة إمبراطورية إسبانيا في سواحل مملكة نابولي التي كانت إحدى ممالك «شارل الخامس» عدوها المشترك.

كما كان التنافس الأسرى الأوروبي متزامناً مع الثورة الدينية في أوروبا، والتي بدأت في ألمانيا بقيادة المصلح الديني «مارتن لوثر»، حتى إن الملك «فرنسوا الأول» الكاثوليكي - الذي لم يُنسَ هزيمته في إيطاليا - قد شجع الثوار الألمان البروتستنت على تحدى السلطة الحاكمة بالمساندة العسكرية. وقد ساهمت هذه الأحداث في تكريس نجاح العثمانيين، وإن لم يستغل هؤلاء ذلك المناخ الانقسامي في أوروبا بصورة أشد، حيث كان العثمانيون يحاصرون النمسا، ولم يُرفع الحصار عنها إلا عام 1530م بعد توضحيات كبيرة⁽¹⁾.

وقام «مارتن لوثر» - صاحب الثورة الدينية البروتستنتية في ألمانيا - بمعاداة العثمانيين، ووصفهم في كتاباته بأنهم السَّخَطَةُ الخائسة التي أنزلها ربُّ غَضُوبٍ على الشعب المسيحي، كما رأى فيهم تحقيقاً لنبوءة «حزقيال» القديمة التي قال فيها: «سوف ينطلق الشيطان من سجنه»! وقامت الدعوات الإصلاحية بالربط بين مظالم الكنيسة وبين الدعوات التحررية من الحكم العثماني الذي رأوا فيه سبباً للآلام والقسوة

(1) عبد العزيز سليمان نوار وزكريا سليمان وعلى عبد اللطيف، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، نسخة نخريرية، مكتبة التربية والتعليم، طبعة 1987-1988م، ص 45.

في الحياة⁽¹⁾، وتحقيقاً لنبوءة القديس «يوحنا»: «نأتى بأسود الأمم ليتمكنوا دياركم»، رغم ما في هذا الاتجاه المعادى من تجنب للحقيقة. وقد نظرت أوروبا إلى الفتوح العثمانية كحركة إسلامية توسعية، فزالت فكرة معاداة العروبة التي كانت مهيمنة منذ فتح «طارق بن زياد» الأندلس، وحلت محلها فكرة الإسلام، وأصبح لفظ مسلم مرادفاً للفظ تركي، كما تعلق أفتدة المسلمين بالدولة العثمانية كخط دفاع ضد العالم المسيحي.

الحكم العثماني في البوسنة

أصبحت البوسنة والهرسك ولايتين عثمانيتين بعد فتح «محمد الثاني» الذي أعلن في نظام حكمه حرية ممارسة العقيدة الدينية، وأنه لا إكراه لفرض العقيدة الإسلامية على الرعايا المسيحيين، مرسماً الأسس القديمة في نظام العلاقات بين المسلمين والنصارى منذ عهد السلاجقة والدانشميين الذين كانوا يسوون بين رعاياهم، فلم تُقْم بينهم خصومة رغم وجودهم في مناطق تتجلى على جانبيها الخصومة بين الترك وبيزنطة، حتى ليقرر المؤرخون البيزنطيون أن الروم الذين كانوا يعيشون في مناطق الحدود كانوا يعقدون علاقات تعاون وصدقة مع الأتراك، ضارين عرض الحائط بأوامر الإمبراطور البيزنطي... هذا إضافة إلى توافر نفس الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي عاش فيها الطرفان⁽²⁾؛ ولذا وجدنا على مر ذلك التاريخ دخول العديد من البيزنطيين في الدين الإسلامي،

(1) بول كولز، مرجع سابق، ص 114.

(2) محمد فؤاد كوبرلي، مرجع سابق، ص 132.

سواء من الأسرة البيزنطية العليا كأسرة «كومنين»، أو من الصنائع والحرفيين، أو حتى من كبار المتصوفين الذين تحولوا هم أنفسهم إلى الدين الإسلامي أو تحول آباؤهم من قبل، ولذا كان تلقى أهل البوسنة والهرسك لواقع الحكم العثماني مختلفاً عن شعوب البلقان الأخرى، فقد كان لهم منذ القِدم عقيدة دينية تسمى «البوجومالية Bogomall»، وكانت لهم كنيسة خاصة؛ ولذا فقد عانوا الكثير من غضب البابوية الغربية، وكذلك الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، اللتين سَمَّيَتهن بالهرطقة.. وقد قاوم البوجوماليون جميع الضغوط لجذبهم للحظيرة المسيحية⁽¹⁾. وتتميز البوجومالية في الكثير من جوانبها بالتقارب مع العقيدة الإسلامية، فكان البوجوماليون يرفضون تقديس البشر وعبادة الصليب والعديد من الطقوس المسيحية كالتعميد، بل كانوا يرون في العقيدة المسيحية دين شرك!⁽²⁾ وقد يرجع ذلك إلى أن قبائل البوشناق، الذين يشكلون سكان البوسنة والهرسك، هم البجناق في الفولجا الذين وصلوا إلى القسطنطينية وحدود إيطاليا منذ القِدم. وقد حرف الروس كلمة "بجناق" التركية فقلبوا الجيم الفارسية ذات ثلاث النقاط إلى شين، وهكذا تم تحريف اسم هذا الشعب فأصبح البوشناق. والمعروف أن البجناق والبلغار أسلموا منذ العصر العباسي، وتؤكد هذا رحلة «ابن فضلان» (310 هـ) الذي أوفده الخليفة العباسي ليعلمهم أمور دينهم.

(1) بول كولز، مرجع سابق، ص 34.

(2) محمد حرب، مرجع سابق، ص 22.

ويتساءل الدكتور «محمد حرب» في كتابه "المسلمون في آسيا الوسطى والبلقان" عما إذا كان الدين الإسلامي قد انتقل مع البلغار إلى بلغاريا، ومع البوشناق إلى البوسنة؟ ويمكن القول بأن مبادئ الإسلام الأولى ربما لم تستقر بصورة واضحة عند هذه الشعوب طالما كانوا قبائل رحل وجنوداً مرتزقة في جيش بيزنطة، فتدخلت عوامل أخرى في تكوين عقيدتهم، كما أنهم كانوا بالفعل في موطن قديم للإسلام مركز ثقله في تركستان الروسية وتركستان الصينية، ففي الأولى كان المسلمون ينتشرون شمال القوقاز وجنوبه، ومن جنوب روسيا الأوروبية شمال البحر الأسود والقرم في مناطق غير بعيدة عن الحدود الشمالية لجمهورية كازاخستان الإسلامية الحالية. وفي الثانية، في تركستان الصينية "سينكيانج"، كان عمر "زونجبار" الشهير يمثل مَعْبَرِ الإسلام إلى جنوب الصين، مثلما كان مَعْبَرًا للهجمات التتيرية والمغولية إلى غرب آسيا وشرق أوروبا.. كما كان طريق الحرير على تخومها الجنوبية طريق الإسلام الآخر. ويُعد المسلمون إثنولوجيًا - بدرجة أو بأخرى - امتدادًا عبر الحدود لكثير من شعوب تركستان الروسية. وقد سبقت العلاقات التجارية بين العرب والصين العصر الإسلامي بكثير⁽¹⁾، هذا إضافة إلى وجود جاليات للتجار العرب في مدن الصين. وقد دعم هذا الاتجاه للمؤرخين أسباب الصراع الطويل بين أهل البوسنة والقيادات الدينية المسيحية في أوروبا وبيزنطة، وسرعة التقارب الذي تم بين البوسنيين والفاشين العثمانيين، فدخلوا

(1) جمال حمدان، العالم الإسلامي المعاصر، عالم الكتب، ص 37.

الإسلام بصورة جماعية ليس لها نظير في جميع شعوب البلقان، بالرغم من تماثل النظم العثمانية المتبعة في حكم الولايات المفتوحة. كما ساعد على ذلك احترام الحكم العثماني الإسلامي للملكية الخاصة طبقاً للشريعة الإسلامية، فاحتفظت الأرستقراطية البوسنية التي اعتنقت الإسلام بأوضاعها الاجتماعية القديمة. كما وضع أيضاً الفارق الكبير بين الإقطاع العثماني الحربي الذي كان يمنح المقاتل - أو السباهي - إقطاعاً من دون ضرائب ترغيباً في الانضمام إلى الجيش، وبين الإقطاع الأوروبي؛ إذ كان الإقطاعي في النظام العثماني أثناء تغيبه في مهامه العسكرية، لا يترك نائباً في إدارة أملاكه حتى عودته إذا قُدر له أن يعود، الأمر الذي ساهم في تمتع أهل الإقطاعية بمباشرة معيشتهم وخلق مجال لتطور الحكم الذاتي في تلك الإقطاعيات، وذلك على نقيض ما كان يحدث في الإقطاع الأوروبي، حيث لم يكن الإقطاعي يغادر مقره، ولا يسمح للفلاحين بممارسة أي حق في تسيير أمورهم الخاصة.. وهكذا صادف العثمانيون ترحيباً من النبلاء البوسنيين ومن فلاحيتهم أيضاً. وكانت الإدارة المركزية في العاصمة إسطنبول تفصل بهيئاتها المختلفة في شئون الأقاليم وإلغاء سلطة محاكم الإقطاع التي انتشرت في إقطاعيات أوروبا⁽¹⁾، ولم تشكل مسألة الجنس أو الانتساب أي عائق في مسار تقدم المواطنين، فشغل أكثر من بوسني منصب الصدارة في الحكومة العثمانية، وكذلك الألبان وغيرهم. وبالنسبة للجانب الاقتصادي، فقد انحسرت الأهمية التجارية عن بعض

(1) بول كولنز، مرجع سابق، ص 59.

المناطق الاستراتيجية الموصلة بين الشرق والغرب، كم منطقة راجوسا التي أصبحت لا تشكل إلا شريطاً ضيقاً حافظت على بقائه بالخضوع والتقرب للسلطان. وفي المقابل، اكتفى العثمانيون بجباية الضرائب فقط بعد انحسار أهمية البندقية وخطرهما على المنطقة واستقرار العثمانيين بالبوسنة والهرسك⁽¹⁾. كما لم تشكل لها الطوائف المسيحية أية مشكلة خلال فترة قوة الدولة، فكان التسامح والتعايش السلمي يكفل للجميع مواطنة كاملة، حتى بدأ تَسَيُّسُ القوميات ومطالب الأقليات الدينية يتضح فيما بعد، متخذاً من نظام الملة في الدولة - الذي يوضح إطار الحكم على أساس الدين - منطلقاً لكي يخلق بذور الطائفية⁽²⁾. وكان الدين الإسلامي يشكل بعداً من أبعاد السياسة وعنصرًا في تركيب القومية؛ فباسم الإسلام ساند العثمانيون شمال إفريقيا في كفاحهم ضد الإسبان.. وكان سقوط القسطنطينية - معقل الأرثوذكسية - وراء التحول الجماهيري نحو الإسلام في البوسنة⁽³⁾، وإن أبقى العثمانيون من باب التسامح الديني على الكنيسة البوشناقية.. ومن باب التسامح أيضًا، جلب «محمد الفاتح» كثيرًا من الكاثوليك المحاربين إلى البوسنة للاشتراك في تعميرها بمقتضى قانون «عهدنامه»، ولولا ذلك لما بقى في البوسنة غير المسلمين⁽⁴⁾. وأقام العثمانيون في البوسنة كعادتهم في البلاد المفتوحة المسجد والمستشفى

(1) بول كولز، مرجع سابق، ص 111.

(2) جمال حمدان، مرجع سابق، ص 70.

(3) بول كولز، مرجع سابق، ص 34.

(4) محمد حرب، البوسنة والهرسك من الفتح حتى الكارثة، مرجع سابق، ص 23.

والمدرسة والسوق والحمام.. واتخذوا من سيراييفو - أى «بوسنة سراي» - عاصمة للبوسنة كما أطلق عليها العثمانيون، وأقاموا بها الكثير من المساجد والآثار العمرانية، فارتفع مستواها الحضارى، وأقيمت بها المنشآت التعليمية كمدارس «خسرو باشا». ومن المدن الهامة نذكر طوزولا.

وبالنسبة للهرسك، أو «هر سكوفين»، والتي كانت تسمى أيضا دوقية «سانت ساباس»، فقد فتحها «محمود باشا» الصدر الأعظم الذى قاد بعض الحملات، حتى قَدَّم دوق الهرسك «ستيفان قسارتيس» ابنه الصغير رهينة للدلالة على انقياده؛ لذلك تركه العثمانيون فى موقعه، وعُيِّن ابنه فى معية السلطان «الفتاح»، فأسلم وسمى نفسه «أحمد»، ثم أصبح لقبه «هرسك زاده أحمد باشا»، وأصهر للأسرة العثمانية الحاكمة، ثم أصبح صدرًا أعظم بعد ذلك⁽¹⁾.

هذا، وقد اتبعت الدولة العثمانية أسلوبًا فى الردع، سواء فى الرومللى أو فى الولايات الشرقية، بإرسال حملات تأديب من المناطق المجاورة حتى لا يحدث تقارب بين الجهات المختلفة⁽²⁾.

التنافس الأوروبى حول أملاك الدولة العثمانية

سار التنافس الدولى فى محورين رئيسيين بقصد السيطرة على البحرين المتوسط والأسود تحقيقًا لأبعاد استراتيجية الدول العظمى، فقامت

(1) محمد حرب، المرجع السابق، ص 24.

(2) بيير رينو، مستقبل الشرق الأوسط، تعريب نجدة طاهر، المكتب التجارى للطباعة، ص 10.

إمبراطورية النمسا والمجر منذ البداية بدور مهم في التصدي لتوسعات الدولة العثمانية، وكان دورها ذلك من أهم أسباب بقاء تلك الإمبراطورية المتهاككة وعوامل الضعف والصراعات الدستورية بداخلها، إضافةً إلى تنافسها مع غيرها من الدول الأوروبية، واشتغالها على قوميات وعرقيات مختلفة ومتعادية، فكان موقعها على الحدود الجنوبية والشرقية لأوروبا يمثل خط دفاع استراتيجياً مهماً لأوروبا. ودارت الحروب بين العثمانيين وإمبراطور النمسا سجالاتاً حتى تم عقد اتفاقية عام 1547م، التي تتكون من 16 بنداً، بعد أن أحرزت النمسا بعض الانتصارات، وتعهدت بتأمين المناطق المتاخمة للأراضي العثمانية⁽¹⁾ لمنع التوسع الروسي في البلقان، وكان الروس يعلنون حقهم في حماية الأرثوذكس باعتبارهم ورثة الإمبراطورية البيزنطية⁽²⁾ السابقة، وكذا أعلنت النمسا حمايتها على الكاثوليك، ونافست فرنسا في هذا المطلب التاريخي الذي طالما أعلنته فرنسا منذ الحروب الصليبية في الشرق الإسلامي.. وأصبح المحور الديني إحدى صور التنافس الدولي في الأراضي المسلمة. وهكذا كانت فرنسا تعارض كلاً من الروس والإنجليز، كما كانت النمسا تعارضهما وتعمل على خلق مناطق آمنة لها في البوسنة والهرسك⁽³⁾.

ومن ثم بدأ التمزق التدريجي للإمبراطورية العثمانية وسيطرتها على

(1) محمد حرب، مرجع سابق، ص 29.

(2) محمد محمود السروجي، مصر والمسألة الشرقية، مطبعة المصري، ص 16.

(3) بشير السباعي، تاريخ الدولة العثمانية، مترجم عن الفرنسية، ص 5.

أوروبا البلقانية من الخليج الفارسي حتى المحيط الهندي وضافه الجنوبية؛ فالروس لهم حق حماية الأرثوذكس منذ عقد معاهدة اكو تشك كينارجي، عام 1774م التي اعترفت فيها الدولة العثمانية بحقوقهم في حماية الكنيسة الأرثوذكسية في العاصمة العثمانية⁽¹⁾، وسعى الإنجليز للسيطرة على الطرق المؤدية إلى إمبراطوريتهم في الهند، ومن ثم السيطرة على الجزء الذي يفصل البحر المتوسط عن المحيط الهندي، خاصة بعد قيام الثورة الصناعية العالمية والتغيير الجذري في الهيكل الصناعي.. وكانت دولة روسيا تمتد جغرافياً في آسيا وأوروبا.. ومع نمو القوة الروسية في بداية القرن التاسع عشر، بدأت تخرج من إطار كونها دولة شبه آسيوية إلى دولة تنتمي إلى القارة الأوروبية، سيما في عهد القيصر «بطرس الأكبر» وخليفته «كاترين الثانية»، ووجد حكام أسرة «رومانوف» في هذا المنطلق طموحاً ينبغي تحقيقه بإزالة الطرق المسدودة أمام الاتجاه للخارج. وتمثلت أولى العقبات في سيطرة السويد على ساحل البلطيق، وكذلك كانت بولندا بدورها تعرقل اتصال روسيا بوسط أوروبا، أما البحر الأسود فكان بحيرة عثمانية مغلقة، فكان على «بطرس الأكبر» فتح الطرق عن طريق معاداة ملك السويد أو بولندا أو الدولة العثمانية، فاختر العمل ضد الأتراك حتى يمكنه الاستفادة من إيقاظ الروح الوطنية والدينية لدى الروس الأرثوذكس⁽²⁾. ولما كانت الدولة العثمانية قوية آن ذاك، لم يستطع

(1) علي حسنى الحروبوطلى، أضواء جديدة على تاريخ العالم الإسلامي، معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة 1979، ص 95-97.

(2) جلال يحيى ونصر مهنأ، مشكلة قبرص، دار المعارف 1981، ص 90.

القيصر سوى الاستيلاء على ميناء أزوف الواقع على مصب نهر الدون من الأتراك، ولم يحقق هذا الميناء القدر المطلوب في الاتصال بأوروبا؛ إذ كان لا يتصل بالبحر الأسود الذي كانت كل مخارجه تحت السيطرة العثمانية، بل كان بحيرة عثمانية.. ولذلك اتجه «بطرس الأكبر» إلى الجانب الآخر من البلطيق. واستمرت الحروب بينه وبين ملك السويد منذ عام 1700 حتى 1721م، حتى كانت معركة بولتافا الفاصلة، وأصبحت روسيا بعدها دولة كبرى في شمال أوروبا، الأمر الذي شجع القيصر على خوض حرب ضد العثمانيين في البغدان (رومانيا)، ولكنه هُزم وانسحب من ميناء أزوف، واضطر إلى دفع ثلاثة ملايين فرنك ذهبًا للصدر الأعظم العثماني⁽¹⁾، ولكن تمكنت روسيا بعد ذلك من الحصول على مزايا في البحر المتوسط كانت مؤشرًا خطيرًا على ضعف الدولة العثمانية، وفتحت الأبواب للأطماع الأوروبية. وبالفعل تقدمت فرنسا بحملة نحو أهم ولايات الأتراك في مصر؛ إذ سعى العثمانيون إلى عقد اتفاق مع روسيا عام 1798م لد الأتراك باثنتي عشرة قطعة بحرية في مقابل أن تحصل على حق دخول سفنها الحربية البحر الأسود⁽²⁾. ونجح «بول الأول» قيصر روسيا في الاقتراب من البحر المتوسط في عهد السلطان «سليم الثالث». كما منحت الدولة العثمانية في العام التالي بريطانيا حق مرور سفنها التجارية في البسفور والدردنيل من وإلى البحر المتوسط⁽³⁾، واستمر هذا الوضع

(1) جلال يحيى ونصر مهناء، المرجع السابق، ص 91.

(2) جلال يحيى ونصر مهناء، مشكلة قبرص، دار المعارف 1981م، ص 93.

(3) المرجع السابق، ص 94.

حتى جاءت انتصارات «نابليون» في القارة الأوروبية ضد النمسا والروسيا، مما اضطر القيصر الروسي إلى الانسحاب صوب بلاده شرقاً. وعندما انتصر «نابليون» على بروسيا في موقعة آينا سنة 1806م وأعلن الحصار البحري على بريطانيا، حيال ذلك تشجعت الدولة العثمانية وألغت جميع الامتيازات التي أعطتها لروسيا، ولم تلتفت لمعارضة السفير الروسي أو السفير البريطاني، ولذا اتجهت روسيا إلى جذب بريطانيا للتعاون معها في مهاجمة الدولة العثمانية، وتمنعت بريطانيا تحسباً لنوايا الروس التوسعية في البحر المتوسط⁽¹⁾.

وعندما تعرضت الدولة العثمانية لحركات تمرد واضطرت إلى الاستعانة بالنظم الأوروبية في مجالات الجيش والبحرية، منحت الدولة الروس امتياز الدفاع المشترك في المضائق، وإن لم تسمح هذه الاتفاقية بدخول السفن الحربية الروسية البحر الأسود. وقد عملت روسيا دائماً على التخلص من هذه الوضعية⁽²⁾، وانتهزت فرصة مناوأة «محمد علي» وإلى مصر ومهاجمته الشام حتى وصلت قواته إلى أزمير وهددت العاصمة إستانبول، وكذلك عندما استولت فرنسا عام 1830م على الجزائر. وهكذا وجدت روسيا فرصة للتدخل إلى جانب الدولة العثمانية، وتم توقيع معاهدة بينهما نصت على أن يغلق السلطان المضائق أمام كل السفن البحرية. وسارعت روسيا بإرسال قطع من أسطولها إلى جانب قوات برية

(1) المرجع السابق، ص 95.

(2) المرجع السابق ص 98.

أمام البسفور، ومن الغريب أن بريطانيا لم تتحرك إلا تَوَجُّسًا من تحالف قد يقوم بين «محمد علي» وفرنسا، فعقدت اتفاقية مع روسيا وبروسيا والنمسا كإنداز لفرنسا للرجوع عن ذلك التحالف حتى لا تصل إلى وضع متميز في البحر المتوسط تنافس فيه طرق التجارة البريطانية. وأضحى التنافس الدولي متشابكًا ومتناقضًا، ومثالٌ على ذلك: حرص بريطانيا على ألا تنفرد روسيا بوضع حلول لمسألة القوميات أو إثارة النزاع الانفصالية لدى شعوب البلقان حتى لا تتعرض النمسا بدورها لانفصال في ولاياتها باعتبارها ليست دولة صقلبية كروسيا وإنما تحكم عددًا من الصقالبة.. ولذلك اتجهت روسيا إلى مساندة أرثوذكس اليونان ماديًا ومعنويًا، حيث كان اليونانيون يشكلون أغلبية سكان جزيرة كريت، فسعوا إلى أن تكون الجزيرة تحت إدارة حاكم مسيحي، وهو ما أثار خلافًا مع الحكم العثماني، وكان ما كان من جراء تشددهم في الردع والتكيل بنشوب الثورة في الجزيرة⁽¹⁾.

ثورة اليونان ضد الحكم العثماني، والدور الأوروبي الجديد

بتأييد من روسيا ودعمها، قامت عدة جمعيات وطنية في اليونان، فأسس الشاعر اليوناني «كونستاتين ريجاس» جمعية «هيتاري» السرية حتى تم القبض عليه عام 1798م، ثم عادت الجمعية إلى مزاولة نشاطها عام 1814م، وأصبح لها أتباع في إستانبول باسم جمعية الأصدقاء (فيلكي

(1) جلال يحيى، تاريخ العرب الحديث، منشأة المعارف بالإسكندرية، ص 436.

هيتارى). وقام «الكسندر بسيلانى» من الجزيرة الأيونية بالاتصال بقيصر روسيا، وتولت تلك الجمعية التخطيطات العدوانية في البلوبونيز، وكذا الاتفاق مع الصرب، كما اتجهت الجمعيات إلى عقد صلات مع رجال الدين الأرثوذكسى في إستانبول، وكذلك إلى حث مواطنى رومانيا على القيام بعمل جماعى، مكونين حلفاً مقدساً بينهم⁽¹⁾، ومنتهزين انشغال الدولة العثمانية فى صراعها مع الروس فى مولدافيا وفالاشيا، حتى تمكنت الدولة من كبح جماح هذه الجمعية، وحكمت بالإعدام على المحرضين، فثار بطريق «باتراس» - منتهزاً أحداث الحرب التركية / الإيرانية التى نشبت عندما استولى الإيرانيون على الأناضول الشرقى فى كردستان عام 1821/ 1822م - لكى يعلن حرب التحرير فى 25 من مارس عام 1821م. وقد جرت أحداث هذه الحرب بشكل غير منظم فى البلوبونيز وبحر إيجه إثر قيام المتمردين بقتل المدنيين الأتراك فى المورة وفى تربوليتا فى أكتوبر عام 1821م، وعندها قامت الدولة بمطاردة المنشقين وشنق البطريق الأرثوذكسى المتعاون، واقترب الجانبان أعمالاً وحشية أثارت الرأى العام العالمى إلى جانب اليونانيين، خاصة بعد مذبحة شنت فى أبريل عام 1829م. واضطرت الدولة العثمانية إزاء تطور الصراعات إلى الاستنجاد ببريطانيا، وكذلك بـ «محمد على» والى مصر، إثر تدخل الروس الكامل بجانب اليونانيين وإعلان بريطانيا والنمسا أن الثورة اليونانية مسألة داخلية تهم الدولة العثمانية، وطالباً روسيا بوقف التدخل حماية للسلام فى

أوروباً⁽¹⁾. وبعث «محمد علي» ابنه «إبراهيم» لإخماد ثورة اليونان، وتمكن من إنزال هزيمة ساحقة بالثوار، مما أثار بريطانيا ضد التقدم المصري. وحتى لا تنفرد روسيا وحدها بحل المشكلة⁽²⁾، وحتى لا يقوى نفوذ «محمد علي» ويكون هذا بداية لإعداد وريث قوى للدولة العثمانية المنهارة، اتفقت كل من إنجلترا وروسيا في أبريل عام 1826م، على منح اليونان حكمًا ذاتيًا رغم عدم تأييد النمسا لذلك تخوفًا من وصول ولي عهد اليونان - صهر «غليوم الثاني» إمبراطور ألمانيا - إلى العرش، وحتى لا تقوى المقدونية التي يتزعمها البلغار لتكوين دولة بلغاريا عن طريق ضم أجزاء من الإمبراطورية النمساوية⁽³⁾. وترتب على تسوية استقلال اليونان خروج الروس صُفْرَ اليدين⁽⁴⁾، وكذلك تشجيع جميع الصراعات القومية ضد الدولة العثمانية⁽⁵⁾، وإن استمرت بريطانيا تعلن عن سياساتها في الحفاظ على أملاك الدولة العثمانية رغم اتجاهات «السبري» رئيس وزرائها الذي تزعم اتجاه حماية حقوق الأقليات، وطالب بالتدخل العسكري البحري في البسفور والدردنيل للوصول إلى أرمينيا المطلّة على البحر الأسود ووقف المذابح التركية بها⁽⁶⁾.

وقد استمرت المسألة الشرقية إحدى المشكلات الصعبة في العلاقات

(1) جلال يحيى، تاريخ العرب الحديث، منشأة المعارف بالإسكندرية، مرجع سابق، ص 38.

(2) محمد محمود السروجي، مرجع سابق، ص 3.

(3) جلال يحيى، معالم التاريخ الحديث، مرجع سابق، ص 497.

(4) السروجي، مرجع سابق، ص 8.

(5) فاضل حسين، محاضرات مؤتمر لوزان، معهد الدراسات العربية، القاهرة 1979، ص 4.

(6) بيير رينو، مرجع سابق، ص 78.

الدولية، وقد سبق مؤتمر فيينا 1815 - الذى أنهى انتصارات «نابليون» فى القارة الأوروبية - فى وضع المسألة الشرقية بجدول أعمال المؤتمر لتصفية الإسلام فى أوروبا، ولكن حال التنافس بين المؤتمرين، فأجّل بحث المسألة الشرقية حتى لا تصل روسيا إلى تحقيق اتساع غربًا وجنوبًا فى المناطق السلافية وأرمينيا⁽¹⁾.

حرب القرم، ومرحلة جديدة للتنافس الدولى

حول الدولة العثمانية

حرصت بريطانيا على إبقاء قوة الدولة العثمانية فى وضع متأرجح بين القوة والضعف حتى لا تقع فريسة لأى قوى أجنبية أخرى، وكما يقول الزعيم المصرى «مصطفى كامل»: «إن بريطانيا حرصت دائمًا على تفتيت أوصال الإمبراطورية العثمانية تبعًا لمصالحها، رغم محاولتها الظهور بمحافظّة على حدود تلك الإمبراطورية». ولذا تعد حرب القرم (1853- 1856م) من الحروب المعبرة عن مجالات التنافس الدولى المسيحى مع العالم الإسلامى، وذلك عندما اشتركت إنجلترا إلى جانب الدولة العثمانية فى حربها ضد روسيا دفاعًا عن كيان العثمانيين، أو كما صرح وزير خارجية بريطانيا: دفاعًا عن مبدأ الحفاظ على التوازن الدولى عندما أعلنت روسيا الحرب بمفردها بعد أن يثبت من إمكانية توريط بريطانيا معها. ولم تترك

(1) محمود ثابت الشاذلى، دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية (1292- 1923م)، مكتبة القاهرة، ص 1330.

فرنسا بريطانيا تعمل بمفردها، فتدخلت إلى جانبها في الحرب كمحاولة منها لاستعادة أمجاد الفترة النابوليونية التي هفت إليها أفئدة الفرنسيين. أما النمسا فقد بقيت على أسلوبها الخذر المحايد رغم جهودها المستمرة في مؤازرة الأقليات المسيحية في البوسنة والهرسك، حتى في وجود برنامج إصلاحى ودستورى عثمانى في البلاد وفق النظم الأوروبية والفرنسية.. ولكن حال دون تدخلها، الحفاظ على قوتها العسكرية لمواجهة المعارضة الداخلية، وكذلك القوى البروسية الناشئة، والتي كانت تعد نفسها لوراثة الزعامة في الإمبراطورية النمساوية.

وقد بدأت بوادر الأزمة التي أدت إلى الحرب عندما هاجم نصارى البوسنة قافلة عثمانية وقتلوا عددًا كبيرًا من جنودها وخطفوا قائدها⁽¹⁾.. وعندما أرسلت الدولة بعض قواتها لتأديب المتمردين، أعلنت كلٌّ من الصرب والجبل الأسود حيادهما. وإزاء الانتقام العثماني، تصدت وسائل الإعلام الأوروبي لأسلوب الردع العثماني، وساندت موقف الأقليات البادئين بالعدوان، حتى بدأت روسيا تتقدم لحماية السلاف. وتحالفت الدوافع القومية والتطلعات السياسية والدينية لزيادة اضطراب البلقان، حتى أضحت المنطقة أشبه ببرميل بارود معرض للانفجار إذا ما ارتفعت حرارة المنطقة. ولم يكن خافيًا على الدول الأوروبية المعنية أهمية الدولة العثمانية في الحفاظ والسيطرة على المضائق البحرية إزاء الأطماع الروسية التي قامت بالفعل بالاستيلاء على الأفلاق والبغدان (رومانيا). وطلبت

(1) محمد حرب، مرجع سابق، ص 64.

الدولة العثمانية مساعدة الخديوى «إسماعيل» وإلى مصر رغم توجسها من أطماع هذا الخديوى. وبالفعل سارع الخديوى بإرسال قواته رغم تحذيرات فرنسا وبريطانيا وتهديدهما بحصار السواحل المصرية⁽¹⁾. وهكذا شارك الجندى المصرى إلى جانب الجندى العثمانى والجنود الفرنسيين والبريطانيين، وهزم الجيش الروسى عند نهر «الماء». وقد بلغت القوات المصرية 21 ألف مقاتل. وساندت القوى البرية قطع الأسطول العثمانى والمصرى لحصار شواطئ شبه جزيرة القرم، ووجد القائد العثمانى «مصطفى ناتلى بك» أن الضرورة العسكرية تستدعى توحيد القيادة العسكرية العثمانية والمصرية تحت رئاسته، مع التحفظ فى إعطاء المصريين حرية الحركة المنفردة، ومنعهم من القيام بإجراءات مرنة مع الثوار، أو استقطابهم نحو الحكم المصرى فى المنطقة كتعويض عن خسارة المصريين السابقة فى جزيرتى كريت وقبرص. وجاءت هذه المبادرة التركية ردًا على نصيحة الخديوى لقواده المشاركين فى الحرب بالحرص على تثبيت الاستراتيجية المصرية المستقبلية فى البلقان.

وهكذا.. فرغم اشتراك كلتا القوتين العسكريتين متلازمتين فى المعارك، إلا أن قيادات كلٍّ منهما كانت تتحرك بصورة مختلفة حتى لا تنفرد إحداهما بانتصار حاسم ضد الثوار. كما رأت القيادة المصرية أن انتصار الفريقين متلازمين قد يفسّر فى غير صالح مصر، وكان «إسماعيل» يتوقع التأييد الفرنسى له فى دوره الجديد، سيما أنه قام بمعاونتها عسكريًا فى

(1) الروجى، مرجع سابق، ص 67.

المكسيك رغم مخالفة ذلك لفرمان 1841، كما أن بريطانيا كانت ترى أن مصر أفضل من الحكومة العثمانية في إدارة الجزيرة، وكان مؤدى ذلك عدم الاطمئنان والتوجس العثماني حيال مصر!

وبعد أن أحرز الطرفان عدة انتصارات ضد الروس، خاضت بريطانيا وفرنسا معارك حاسمة ضد الروس عام 1854 للقضاء نهائياً على القوة البحرية الروسية⁽¹⁾، وهو ما كان يهم كلتا الدولتين، فاختارا ميناء إسباستنبول الروسى ليكون هدفاً للعمليات العسكرية.

وفي نفس الفترة، قاد القسيس «دانلو» الثورة في الجبل الأسود، ونادى بنفسه ملكاً عليها سنة 1855م، فأرسلت الحكومة العثمانية بقوات للقضاء عليه، حتى تدخلت حليفته روسيا وطلبت عقد معاهدة منفصلة خاصة بالجبل الأسود، وأيضاً لتسوية مسألة الأماكن المقدسة في فلسطين، والاعتراف بالطريق الروسى رئيساً دينياً لكل عموم الأرثوذكس في الدولة العثمانية. ومن هذا المنطلق، أصبح تدخل فرنسا محتوماً لحماية تطلعاتها التقليدية في الشرق، خاصة أن روسيا أرسلت قواتها نحو الدانوب لتأييد الجبل الأسود⁽²⁾. وهكذا اشتعلت المعارك بين الروس والقوى المتحالفة، رغم أن دور بريطانيا العسكرى كان يعد مخالفاً ومتناقضاً مع اتفاقياتها السابقة مع الروس، إلا أن التقدم الروسى كان

(1) الأمير عمر طوسون، الجيش المصرى في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم (1853-1855م)، القاهرة: مكتبة مدبولى، ص 137.

(2) محمود ثابت الشافى، مرجع سابق، ص 135.

أكثر خطورة عندها، ومن هنا جاء ضرب أهم القواعد الروسية في إسباستبول، ثم انتهت الحرب قبل القضاء نهائياً على قوة روسيا.

الجدير بالذكر أن اتجاه بريطانيا وحليفتها فرنسا إلى عدم القضاء الكامل على قوة روسيا كان يهدف إلى استمرارها كقوة ضاربة في المنطقة تهدد الدولة العثمانية وتفتت قواها وجهودها العسكرية. ويتماثل هذا الوضع في كثير من دواعيه مع الدور الأمريكي في التصدي لقوة العراق العسكرية عندما هاجمت جارتها الكويت عام 1990، دون أن ينهى تمامًا قوة «صدام حسين» في العراق؛ وذلك حتى يستمر وجوده مصدرًا للرعب عند الكويتيين فلا يفكرون في الاستغناء عن القوة الأمريكية، والمقابل دائمًا هو الصالح العام للولايات المتحدة الأمريكية!

وهكذا، عندما تتكرر نفس الظروف والملايسات، نجد أن رد الفعل الاستعماري يتماثل، سواء في القرن التاسع عشر أو القرن العشرين، حتى بعد استقرار النظم الدولية الخاصة بتسوية النزاعات بين الدول.. ولكن اليد القوية دائمًا تفرض نفسها بالرغم من الشرائع والقوانين!

معاهدة باريس عام 1856 وتحجيم الدور الروسى في البلقان

سارعت الدول الكبرى قبل إحراز نصر ساحق على روسيا إلى عقد مؤتمر باريس عام 1856 لتوقيع شروط الصلح بعد أن وضح أن الوصول إلى نصر نهائى على الروس سيثير المشاكل بين الدول المتحالفة، وسيفتح المجال أكثر للدولة العثمانية لكى تشتد قبضتها على ولاياتها المسيحية في

البلقان، كما ستتجح النمسا في وراثة النفوذ الروسى في المنطقة، الأمر الذى سوف يزيد الخصومات التقليدية على الساحة الأوروبية ذاتها في فرنسا والنمسا وألمانيا.. ولذلك تقرر في معاهدة باريس احترام سيادة الدولة العثمانية وإعلان حيده البحر الأسود، وإن كان هذا الحياد ينقصه الاعتراف الروسى بعد أن تقلص نفوذ روسيا خلال هذه الفترة وأجلت تحقيق مآربها في الدولة العثمانية. كما أقرت المعاهدة حرية الملاحة في نهر الطونة (الدانوب)، وتخلصت النمسا من الخطر الروسى عند مصب ذلك النهر أو التوسع في البلقان⁽¹⁾. كما أقرت المعاهدة بحق الباب العالى في إقامة حاميات في القلاع التابعة له في الدانوب، والتعهد بعدم الاستعانة بهذه الحاميات في التعدى على الولايات إلا بعد موافقة الدول الأوروبية الموقعة على المعاهدة.

كما حرصت الدول الأوروبية في هذه المعاهدة على أن يتعهد الباب العالى بإدخال نظم حديثة في أسلوب حكمه تجنبًا لأية تدخلات أوروبية جديدة في المنطقة.

وكان تنازل الباب العالى عن قلعتين من قلاعه الست المنصوص عليها في المعاهدة قد أطمع الصرب في الوصول إلى استقلال تام⁽²⁾ وتحريض البوسنة والهرسك على الانفصال.

(1) السروجى، مرجع سابق، ص 139.

(2) المرجع السابق، ص 139.

المعالجة الأوروبية لمسألة الصرب

تحوّلت روسيا بعد معاهدة 1856 إلى الشرق الأقصى في توسيع ممتلكاتها على حساب دولة الأفغان، بالرغم من معاهدة 1857 التي أنهت الحرب الأفغانية الأولى. ووصل الروس بالفعل حتى سمرقند وهاري عام 1868م، ثم توقفت توسعاتهم سنة 1878 بالضغط الإنجليزى. واعترفت روسيا بأن دولة الأفغان تدخل في نطاق النفوذ البريطانى في معاهدة 1908 الإنجليزى - الروسية، وبهذا تكون دولة حاضرة بين إنجلترا في الهند وروسيا القيصريّة، مع احترام سيادة هذه الأراضى⁽¹⁾. وفي نفس الوقت، كانت الدبلوماسية الروسية تعمل من أجل استقلال الصرب كحل لإنهاء الفتن لدى الباب العالى الذى اضطر تحت الضغوط الروسية إلى قبول العرض الروسى وسحب الحاميات العثمانية، حتى لم يَبْقَ سوى العَلَم العثمانى يُرفع إلى جانب العَلَم الصربى في هذه المنطقة. وإزاء النجاح الصربى، بدأ التحرك من البوسنة والهرسك، حتى وافق الباب العالى على إصدار تنظيمات خاصة بهاتين الولايتين. وعندما ثار بعض الأتراك على هذه التنازلات واغتالوا قنصلى ألمانيا وفرنسا، تحركت الأساطيل من النمسا واليونان وروسيا وإيطاليا لتدعيم بعثة التحقيق المكلفة بالتحقيق ومعاقبة الجناة⁽²⁾. ثم عُقد مؤتمر في برلين ضم «بسمارك»

(1) صحيفة الوفد، عدد ربيع الأول 1415 هـ - 1994 م، مقال «جال بدوى»: الأحزان في بلاد الأفغان، ص 14.

(2) الروجى، مرجع سابق، ص 136.

المستشار الألماني و«أندراس» وزير خارجية النمسا و«جور تشكوف» وزير خارجية روسيا، وقدموا «مذكرة برلين» التي ضمت المطالب الأوروبية بشأن دول البلقان، وقُدمت للباب العالي متزامنةً مع ثورات عرقية، حيث قامت المذابح ضد المسلمين المدنيين، ولم يتحرك الرأى العام إلا عندما تحركت قوات الدولة لمنع التعديات. وتناولت الصحافة البريطانية المسألة بتضخيم شديد لإجبار حكوماتها على اتخاذ موقف إيجابى من الباب العالي. وبالرغم من إعلان فرنسا وإنجلترا أن مذكرة برلين تعد تدخلاً سافراً في شئون الدولة العثمانية، وبعد رفض الباب العالي لهذه المذكرة، أرسلت بريطانيا ببعض قطع أسطولها بالقرب من منطقة الأحداث لإشاعة الطمأنينة لدى المسيحيين والضغط على الباب العالي. وفي 30 من مايو عام 1876م، أعلنت الصرب الحرب على الأتراك، واستنجد السلطان العثماني مرة أخرى بالخدوي «إسماعيل» الذي حرص على إجابة السلطان حتى يسانده بدوره في مقاومة النفوذ الإنجليزي والفرنسي الذي يتدخل في شئون بلاده ويهدده بالتنازل عن العرش⁽¹⁾، إضافةً إلى التهديد بإنشاء دولة للدروز التابعين لها في منطقة قناة السويس⁽²⁾. وتمكنت الدولة العثمانية من هزيمة الصرب، ولم تتدخل إنجلترا رغم الضغوط على حكومتها، والتي قام بها السياسي «جلادستون»، وطالبت بريطانيا الباب العالي بقبول المفاوضات ومنح ولايتي البوسنة

(1) محمد صفوت، الاحتلال الإنجليزي لمصر وموقف الدول الأوروبية إزاءه، ص 12.

(2) نجيب صالح، تاريخ العرب السياسي 1856-1956، دار اقرأ، ص 20.

والهرسك الحكم الذاتى، ووافق الباب العالى على أن يذهب أمير الصرب إلى إستانبول لطلب العفو والتعهد بتحمل نفقات وتعويض الحرب. وإزاء التحرك الصربى المستمر، سارعت الدولة فى 13 من أكتوبر عام 1876 بسحق قوات الصرب التى قادها الروسى «تشرنايف»، وامتنعت عن التفاوض مع هاتين الولايتين باعتبارهما من أملاك الدولة العثمانية، ثم رضخ السلطان «عبد الحميد الثانى» لحكومة الاتحاديين بإعلان دستور 1876م، وبمقتضاه تم منح الولايات العثمانية حقوقاً دستورية عديدة، ولم تمنع تلك الخطوة الدول الأوروبية من عقد مؤتمر فى الأستانة أقرب حق البوسنة والهرسك فى الاستقلال الإدارى تحت حكم رئيس مسيحى يوافق عليه الباب العالى⁽¹⁾، ومنح بلغاريا استقلالاً ذاتياً، وأن تشمل منطقة الجبل الأسود «سبيزا» واثنى عشرة مقاطعة من ألبانيا والبوسنة والهرسك.

كما قرر المؤتمر عودة الصرب إلى حدودها القديمة وضم روفنيك، وأن تقوم قوة دولية بحفظ الأمن بها.. وقرر المؤتمر أيضاً جعل اللغة السلافية لغة البلاد الرسمية، وأن يتم اختيار القضاة ومشايخ القرى بالانتخاب⁽²⁾. وشكلت قرارات مؤتمر الأستانة - التى لم يحضرها المندوب العثمانى رغم انعقادها فى عاصمة بلاده - خطوة حاسمة فى تفتيت الدولة العثمانية، وضربت باحتجاجات الباب العالى عرض الحائط. ومنذ هذه المعاهدة

(1) السروجى، مرجع سابق، ص 17.

(2) محمد حرب، مرجع سابق، ص 72.

وحتى الحرب العالمية الأولى، تخلت بريطانيا عن المحافظة على أملاك الدولة ظاهرياً وباطنيًا لمواجهة التنافس الاقتصادي المتصاعد مع ألمانيا المتحدة التي مضت في طريق تكوين المستعمرات. وانتهزت روسيا رفض الدولة العثمانية تنفيذ بنود المعاهدة الجائرة وعقدت اتفاقاً مع الدول المعنية، وأشركت بريطانيا، وبدأت تعد للحرب الروسية - التركية بعد أن حصلت على موافقة تلك الدول على خوض الحرب إلى جانبها. ولم تعد بريطانيا كسابق سياساتها تكتفى بمجرد الإعلان بأن هذه الحرب تحالف بنود معاهدة 1856 التي تعهدت باحترام استقلال الدولة العثمانية، ولكنها تشددت فيما يتعلق بتعرض أمن قناة السويس أو المضائق العثمانية أو الخليج العربي للخطر؛ لوجود المصالح البريطانية بها. أما النمسا فوقفت بريطانيا حيالها على الحياد بعد أن وقعت اتفاقاً بالالتعرض لحقوق النمسا في البوسنة والهرسك.

وهكذا تم لروسيا النجاح في اختراق البلقان حتى وصلت إلى بنى زغرة في 15 من يوليو عام 1877⁽¹⁾ ثم أدرنة، وبذلك هددت العاصمة العثمانية. وبعد أن استقر لها الأمر، أجرت مفاوضات مع حكام الصرب والجبل الأسود، وجرت مفاوضات بين الجانبين العثماني والروسي انتهت بتوقيع معاهدة سان ستيفانو التي نصت على زيادة رقعة الجبل الأسود إلى الضَّعْف وسحب لواء نيس من الأتراك وضمه للصرب، كما حصلت رومانيا على الحكم الذاتي وضمّت منطقة دوبرايجه إليها بدلاً من بسارابيا

(1) حسين ليب، مرجع سابق، ص 71.

التي استولت عليها روسيا. أما بلغاريا فامتدت حدودها من نهر الدانوب شمالاً إلى بحر أرخبيل جنوباً حيث تسكن عناصر غير بلغارية. وهكذا لم يصبح للدولة العثمانية بعد ذلك في أوروبا سوى البوسنة والهرسك وألبانيا وأبروس وسالونيك وغاليبولي والأستانة، أما في الميدان الآسيوي من الدولة فاستولت روسيا بمقتضى المعاهدة المذكورة على قارص وأرضفان وباطوم وبايزيد، إضافة إلى استحقاق غرامة حربية ضخمة على الدولة العثمانية.

وقبل أن يصل إلى علم الحكومة البريطانية نبأ توقيع تلك المعاهدة، أدلى اللورد «داربي» في منتصف مارس عام 1878 بأنه يجب أن يكون مفهوماً أن أى اتفاق يُعقد بين تركيا وروسيا لابد أن يُعرض على مندوبى الدول الأوروبية لبحث مسألة البلقان، وأن هذا العرض لن يكون للتصديق عليه فقط، بل للنظر فيه ومناقشته. ولكن قرارات سان ستيفانو لم تعلمها حكومة لندن إلا في 23 من مارس؛ أى بعد انقضاء ثلاثة أسابيع⁽¹⁾ على توقيعها؛ ولهذا ثارت بريطانيا. وعلق اللورد «بيكونسفيلد» فى مجلس اللوردات على هذه الاتفاقية بأنها قضت نهائياً على ما يعرف بتركية أوروبا ومحت الإمبراطورية العثمانية. وشرعت الحكومة الإنجليزية لمواجهة روسيا عسكرياً، وأمرت بحشد الاحتياطى العام لجنودها، وتجمعت أعداد من الأسطول الإنجليزى حول مالطة. وإزاء هذه الاستعدادات الحربية، حاولت ألمانيا تهدئة الموقف وإيقاف الاستعدادات الحربية من

الجانبيين، واقترح «بسمارك» إبعاد كل من الأسطول الإنجليزي والأسطول الروسي عن الأستانة كشرط لقبوله الوساطة بين الطرفين، ونجح «بسمارك» في إقناع روسيا بعرض مشكلة المضائق من جديد في مؤتمر أوروبي لتخفيف بعض الضغوط عن الحكومة العثمانية وسحب المكاسب الروسية؛ ولذا سارع الأسطول البريطاني باحتلال جزيرة قبرص بصفة مؤقتة. كما أعلن - حتى تجلو روسيا عن مكاسبها في آسيا؛ أى في قارص وباطوم وبايزيد - عقد اتفاق مع الحكومة العثمانية في 4 من يونيو عام 1878 قبل المؤتمر الأوروبي المزمع عقده بشأن هذه المسألة تحت ضغط وجود أسطولها في المياه التركية، وشعرت فرنسا أن هذا الاتفاق الجانبي يهدد مصالحها، فأعلنت احتجاجها على مخالفة الاتفاق الفرنسي - الإنجليزي، الخاص ببقاء الحال كما هو عليه، حتى يتولى المؤتمر بحث الأمر.

ولم يفزع الاتفاق الإنجليزي العثماني فرنسا فقط، بل بقية الدول الأوروبية أيضاً، وكذلك الحكومة المصرية، حيث سارع «كاميل بك القبوكتخدا» إلى الخديوى يخبره بتوقيع المعاهدة الدفاعية مع الباب العالي⁽¹⁾، كما رفض السلطان «عبد الحميد» - بناءً على تأييد الحكومة الإنجليزية - بنود هذه المعاهدة، واستند في رفضه إلى عدم اشتراك بريطانيا فيها، وحاول إرضاء العالم الأوروبى بما أدخله في البلاد من نظم دستورية جديدة. وقامت حكومة الاتحاديين بالهيمنة على السلطة، حتى إن بريطانيا

صرحت بأنه بتطبيق المشروطية الجديدة ستنتهى مشاكل الأقليات المسيحية⁽¹⁾. وطالب السلطان «عبد الحميد» بعقد مؤتمر برلين الذى يرأسه «بسمارك». وعلى أى حال، لم يأت مؤتمر برلين بجديد للدولة العثمانية، ولم يُنه الاستقطاعات من الدولة، بل كما قال الزعيم المصرى «مصطفى كامل»: إن اتفاقية الأستانة جعلت بريطانيا تشجع السلطان على رفض قرارات سان استيفانو التى كانت أقل ضرراً من الاتفاقية التالية، مؤكداً أن بريطانيا كانت تعمل دائماً على إضعاف قوة الدولة العثمانية.

وانتهى مؤتمر برلين بالقرارات التالية: تقسيم بلغاريا قسمين: القسم الشمالى يتمتع باستقلال داخلى، والقسم الجنوبى - أى الروملى الشرقى - يقوم على حكمه والى مسيحي يعينه الباب العالى. كما أيد الاتفاق استقلال رومانيا وضم دوبرايجه إليها نظير استيلاء الروس على بسارابيا التى سبق أن انتزعت منها فى معاهدة باريس عام 1856. وبالنسبة للصرب، فقد ضم إليها الاتفاق منطقة بنش والجبل الأسود، إذ منحها فقط ثلث الأراضى التى قررت لها فى سان استيفانو. وبالنسبة للنمسا، فقد أقر المؤتمر أن تتولى الحكم - ولمدة غير محدودة - فى ولايتى البوسنة والهرسك، ووُعدت اليونان بضم تساليا وأبيروس من العثمانيين. وأخيراً قرر المؤتمر احترام معاهدة 1856 فيما يتعلق بدولية المضائق ونهر الطونة، كما طالب باحترام سيادة الدولة العثمانية واستقلالها بعد كل هذه الاستقطاعات،

(1) محمد السروجى، مرجع سابق، ص 295.

إضافةً إلى فرض تعميم نظام الإصلاح الأساسى - الذى طُبِّقَ عام 1868 فى كريت - فى جميع الولايات الأخرى.

وهكذا لم تأتِ معاهدة برلين بجديد بالنسبة للأتراك، وإنما كرست مصالح النمسا والأقليات المسيحية التابعة للعثمانيين، وفرضت نوعاً من الرضا فى جميع الدول الأوروبية المتنازعة، بالرغم من أن احتلال بريطانيا لقبرص قد شجع فرنسا فيما بعد على احتلال تونس وأن تنافس بريطانيا فى الاهتمام بشئون مصر حتى لا تنفرد بها. وشعرت روسيا بالإذلال بالرغم من مكاسبها الواضحة، واعتبرت إنجلترا مسئولة عن ذلك إلى حد كبير.

وكلفت المعاهدة الدولة العثمانية أموالاً باهظة، وأضعفت هيبتها السياسية، مما دفع السلطان «عبد الحميد» إلى إحكام قبضته على موارد البلاد، كما قام بإلغاء الدستور وتكميم أفواه المعارضة لمواجهة انهيار الدولة، الأمر الذى قوّى التذمر فى نفوس الرعية.

وقد وُوجه السلطان «عبد الحميد» بأكبر حملة تشويه فى تاريخ الدولة العثمانية لمواقفه من الادعاءات القومية المطروحة على الساحة العثمانية، وعُدَّت جهوده فى المحافظة على أملاكه دعوةً للتأخر والرجعية، ومن ثم كان تأليف الأحزاب السياسية الداعية إلى اللامركزية (جمعية التشبث الشخصى وعدم المركزية والمشرطية)⁽¹⁾. ورغم تبنيها فكرة الاستقلال

الذاتى فى إدارة الولايات، إلا أنها لم تجد قبولا بين الشعوب المسيحية لاشتغالها على مبدأ الولاء للخلافة الإسلامية، كما ظهرت تجمعات سياسية أخرى كحزب «وطن» (Vatan) الذى تشكّل فى سالونيك من مجموعة من الضباط والموظفين، وانضم إليهم العديد من «الدونما»، وهم اليهود الذين دخلوا فى الدين الإسلامى. وقد تميز هذا الحزب بالأنظمة السرية⁽¹⁾، سواء فى الانضمام إليه أو فى أسلوب الاجتماعات والعمل. كما انتشرت مبادئ الاتحاد والترقى فى مقدونيا تحت سمع وبصر الضباط الأوروبيين المقيمين فيها بموجب اتفاقية «مورزستيج»⁽²⁾، وكان أعضاء حزب تركيا الفتاة ذاك يشعرون بضغط القوى الأوروبية، فى حين حرص السلطان «عبد الحميد» على اتهام بريطانيا بإثارة الفتن القومية، وشجع التقارب مع ألمانيا التى رأى أنها أقل ضرراً، حتى إنها كانت ترفض الاشتراك فى المظاهرات البحرية الرامية إلى إرهاب الدولة العثمانية، وكانت الزيارتان الشهيرتان لإمبراطور ألمانيا سنتى 1888 و1898 تتويجاً للعلاقة الحميمة مع العثمانيين فى حقبة كان ملوك أوروبا يرفضون خلالها زيارة السلطان الأحمر⁽³⁾ كما لقّبوه!

وساهمت القوى الأجنبية - بكل تناقضاتها وتنافسها - فى تقوية الحزب العسكرى فى الدولة للتسلط السياسى على دفة الحكم، وصولاً لإيجاد

(1) Lieutenant Colonel Malterne L'armee jeunes Turkues, Revues de sciences Politique 1914, p. 434-435.

(2) إرنست مور، ثورة تركيا الفتاة، ص 152.

(3) المرجع السابق، ص 153.

حالة من الفوضى في البلاد تؤثر على قوة الخليفة، والقضاء على موقفه المتشدد من مسألة القوميات وموضوعات أخرى تخص الدول الأوروبية، منها: إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، وهو ما كان يرفضه السلطان «عبد الحميد» بشدة. وانتهى الأمر بتدخل العسكريين في الحكم وبداية هزائم الاتحاديين في معارك عسكرية جديدة وصراعهم الداخلي مع أنصار -ومعارضى- السلطان، وكذلك مع الذين نبهوا إلى خطورة استعارة أساليب الغرب في الدولة الإسلامية لوجود اختلاف جذري بين الفريقين، حتى إن السياسى النمساوى «مترنيخ» قد أشار أيضًا إلى خطورة خطوات الاتحاديين في تطبيق القوانين الأجنبية، ولكنه وُوجه بهجوم باعتباره كارهاً للنفوذ الفرنسى في الدولة العثمانية⁽¹⁾. وقد استمرت تلك التنظيمات منذ تبنى السلطان «عبد المجيد» لها وإصداره خط كلخانة عام 1861 الذى أعده الصدر «رشيد باشا» للمساواة الكاملة بين رعايا الدولة في دفع الضرائب، وكذلك في فرض الخدمة العسكرية على غير المسلمين. وكان مؤدّى ذلك القضاء على نظام الإقطاع الحربى⁽²⁾، مع استمرار الخطط العدائية من جانب الأوروبيين؛ فالهدف كان القضاء على الدولة وليس إصلاحها.

ولا يجب إغفال أن هذه الإصلاحات افتقرت إلى اقتناع السلاطين فعليًا بها، كما أن طبقات الشعب نفسها استنكرت تمامًا كل صور

(1) عبد العزيز سليمان نوار، مرجع سابق، ص 46.

(2) عبد العزيز سليمان نوار، مرجع سابق، ص 44.

التدخلات الأجنبية في شئون الدولة، وكذلك التدخل الأوروبي في شئون المضائق البحرية، إضافة إلى انتشار المدارس والهيئات الأجنبية المختلفة، وخاصة الإرساليات الأمريكية التي أقنعت دولتها بالنظر إلى اليهود بعين الاعتبار فيما يتعلق بحقوقهم في إنشاء دولة إسرائيل في فلسطين، حتى إن السلطة الأمريكية استنكرت التفرقة بين اليهود والمسيحيين في اتجاهات الدولة العثمانية⁽¹⁾. واستمر الغزو الفكري الخارجي مواكباً لجميع اتجاهات الشؤون العثمانية، فلم تختلف أفكار «رشيد باشا» عن محاولات تلميذه «مدحت باشا» في تسييس مشاعر الأتراك نحو الأوروبيين، حتى تم وضع دستور 1876⁽²⁾. وتضاعفت سياسة القمع والتنكيل التي قام بها «عبد الحميد» لحماية الاستقرار السياسي داخل البلاد⁽³⁾.

على أي حال، لقد تحملت الدولة عبء الاستدانة لتغطية الإصلاحات الأوروبية المفروضة، ووصلت الديون الأجنبية إلى 252 مليون ليرة ذهبية عام 1881 في عهد السلطان «عبد العزيز»، وسارت السياسة البريطانية والفرنسية حتى ذلك الوقت على مبدأ الحفاظ على التوازن الدولي⁽⁴⁾، وإن كان السياسي الفرنسي «بونكاريه» من الرافضين لمبدأ انفصال الولايات

(1) فاضل حسين، مرجع سابق، ص 4.

(2) مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني، إعداد محمد حرب، كتاب الهلال، العدد 84، ص 16.

(3) أميرة محمد كامل الخرموطي، مرجع سابق، ص 22.

(4) على ماهر، القانون الدولي، مطبعة الاتحاد، 1924م، ص 115.

العثمانية⁽¹⁾ رغم ظلام الجو السياسى فى أوروبا منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى بداية القرن العشرين.

البلقان على مشارف الحرب العالمية الأولى

بعد حرب القرم والهزيمة الدبلوماسية التى مُنيت بها السياسة الروسية فى البلقان، وفقدانها الأمل فى أى تقدم إزاء التكتل الأوروبى، فقد غيرت روسيا استراتيجيتها نحو التوسع شرقاً فى سيبيريا ومنشوريا، ولم تعترض بريطانيا منذ البداية على الاستراتيجية الروسية الجديدة، حتى إنها لم تعترض على إنشاء روسيا قاعدة بحرية فى بورت آرثر شرق آسيا رغم وجود المصالح البريطانية بها. إلا أن نهاية القرن التاسع عشر شهدت صراعاً بين فرنسا وإنجلترا⁽²⁾ بلغ حد إشعال نيران الحرب بينهما فى إفريقيا⁽³⁾، واستغلت القوميات السياسية فى البلقان انشغال الدول الكبرى فى صراعاتها خارج القارة الأوروبية وتصديها للتوسعات الألمانية الخارجية لزيادة نشاط الفتنة القومية فى البلقان، حتى لقد هددت سلام العالم سنة 1908-1909، وكذلك فى سنتى 1910 و1913، ونجح انقلاب عسكري فى البلقان تحت زعم نشأة الصرب الكبرى ومعاداة النمسا التى تمكنت من ضم البوسنة والهرسك ضمًا كاملاً فى 15 من أكتوبر عام 1908،

(1) لورد ديدق دقونيا سون، أناضوليا إصلاحات أرمنى مشكلة، سوريا مشكلة، عزبه عن التركية راغب رفقى، الناشر: اعتقاد كتحانة، ص 83.

(2) جلال يحيى، معالم التاريخ الحديث، مرجع سابق، ص 437.

(3) وقعت الدولتان شاهرتى السلاح فى فاشودة عندما امتد التوسع الفرنسى من الغرب صوب القوات البريطانية المصرية، لولا أن تراجعت فرنسا عن احتلال فاشودة.

وأيدت روسيا الثوار الصرب إلى حد إعلان التعبئة العسكرية، خاصة أن ألمانيا كانت تتجنب تمامًا العداء الروسي لأنها كانت بسبيل تحقيق وضع متميز في الدولة العثمانية. واقترحت الحكومة الألمانية في ديسمبر سنة 1910 عقد اتفاقية مع روسيا تتعهد فيها بعدم تأييد سياسة النمسا في البلقان، على أن تتعهد روسيا بعدم تأييد بريطانيا في معاداتها. ورغم أن الاتفاقية لم تتم بصورة رسمية، إلا أن روسيا لم تتوقف عن الضغط على الدولة العثمانية فيما يتعلق بتطبيق الإصلاحات في البلقان⁽¹⁾. واستمرت سياسة «بسمارك» الألمانية في العزل بين روسيا وبريطانيا، كما أشار على حكومته بعدم الانحياز لبريطانيا كي يتجنب معاداة روسيا⁽²⁾ ويتمكن من اتباع نفس الأسلوب في الإبعاد بين روسيا وفرنسا، على الرغم من أن الفرنسيين آن ذاك لم يشغلهم سوى خطر رجحان كفة إنجلترا في البحر المتوسط، ولم يجدوا في نمو البحرية الروسية خطرًا يوازي سيطرة إنجلترا على البحار⁽³⁾.

وهكذا حفلت السنوات القليلة التي سبقت نشوب الحرب العالمية الأولى بأزمات دولية، وإن حَجَمَتْهَا بعض الشيء تلك التجمعات الدولية ونظام المحالفات الذي أقامه «بسمارك» في القارة الأوروبية، فكان الحياء المسلح The armed peace هو السمة الغالبة على العلاقات الدولية، ولم

(1) السروجي، مرجع سابق، ص 178.

(2) المرجع السابق، ص 179.

(3) جلال يحيى، أوروبا المعاصرة، مرجع سابق، ص 203.

يكن أكثر من الحرب البلقانية التي اشتعلت عام 1913 وعَرَّضت الدولة العثمانية لأحرج فترات تاريخها بعد هجوم إيطاليا المباغت على سواحلها في ليبيا. وأثناء استمرار الحصار الإيطالي الذي عجز عن التقدم داخل البلاد⁽¹⁾، اندلعت ثورة البلقان التي اشترك فيها الصرب وبلغاريا واليونان والجبل الأسود، وصَعَّدُوا الثورة إلى حرب شاملة بتكوين تحالف مشترك⁽²⁾، فتقدموا من جهة الشمال واحتلوا منطقة درواز وموناستر، ثم احتلوا سالونيك، وأسروا أعدادًا هائلة من الأتراك المدنيين وطردوهم خارج البلاد، ثم تقدمت الفرق البلغارية وحاصرت مدينة أدرنة. وهُزمت القوات العثمانية على جميع الجهات بعد أن هاجمتها القوات اليونانية من الجنوب وأسروا ألف جندي تركي، حتى امتلأت المستشفيات بالقتلى والجرحى وتفشت الأمراض والأوبئة، ولم يتمكن القائد التركي «مصطفى كمال» سوى من منع توغل البلغار في أدرنة، حيث كان يوجد خط دفاع المدينة الذي شُيد أثناء حرب القرم، ولكنه كان ضعيفًا، فاستمر حصار المدينة. وبدأ الجيش العثماني متخاذلاً نتيجة توزيع جهوده بين سواحل ليبيا وحرب البلقان، الأمر الذي يؤكد التوافق بين الجانبين عندما حرصت القوات البلقانية على ضرب العثمانيين قبل وصول قواتهم الموجودة في سواحل ليبيا.

(1) مصطفى الزين، مرجع سابق، ص 38.

(2) Colonel Lamouche, op. cit. p. 353-354.

Livre jaune, Affaires Balkaniques, 1912, p. 92

انظر أيضًا الكتاب الأصفر:

وهكذا تم للبلقانيين انتزاع كل أملاك الدولة العثمانية في أوروبا ما عدا العاصمة إستانبول، ولولا جهود القائد «مصطفى كمال» في حماية المضائق في غاليبولي لما وقف الزحف البلغاري عند حد محاصرة أدرنة. وقد انتهز «أنور باشا الاتحادى» نشوب الخلاف بين القيادات البلقانية، فحاصر المدينة المحاصرة، ودخل أدرنة دخول الفاتحين وسط تهليل وتكبير المسلمين.

معاهدة بوخارست، والمرحلة قبل الأخيرة في استقلال البلقان

أنهت هذه المعاهدة في أغسطس سنة 1913 مراحل الحرب البلقانية، حيث تقرر منح اليونان جنوب مقدونيا وميناء سالونيك وجزيرة كريت، ومنح الصرب منطقة درواز وموناستر، كما سلمت رومانيا إقليم دبروجة⁽¹⁾ الذى كان فى حوزة بلغاريا. وخشيت ألبانيا المسلمة من الدخول فى معترك الصراعات الأوروبية، فأعلنت استقلالها الذاتى تحت حكم أمير ألبانى. ولم يحقق السلم البلقانى الذى تم بموجب معاهدة بوخارست النتيجة المرجوة، ولم يمنع وقوع صدامات جديدة فى البلقان. وكما يذكر السلطان «عبد الحميد» فى مذكراته، فإن كمية العداء والكراهية بين دول البلقان بعضها وبعض، تفوق كراهيتهم للدولة العثمانية⁽²⁾!

(1) مصطفى الزين، مرجع سابق، ص 43.

(2) مذكرات عبد الحميد الثانى، إعداد محمد حرب، كتاب الهلال، العدد 418، ص 16.

الصراع بين دول البلقان

جاءت بداية الخلاف من الحكومة النمساوية عندما طالبت الصرب بالولاء للإمبراطورية النمساوية كبلغاريا، وفي الجانب الآخر كان المهزموون في الحرب البلغارية الأخيرة من الأتراك والبلغار يسعون لعقد تحالف بينهما ضد الصرب لاستعادة ما استُقطِع من أراضيهم في بوخارست، وسعوا لشن حرب انتقامية، وإن رأت بلغاريا التريث بعض الوقت للاستعدادات. وطلب الملك البلغاري «فرديناند» المساعدة من الوزير النمساوي للشئون الخارجية، قائلاً: «ساعدونا وسنُعترف لكم بالجميل».

ولما كانت مسألة الصرب هي ما تشغل النمسا والمجر، فقد طالبتها إما بأن تتعهد بالولاء، وإما إعلان العداء رسمياً. ولم تتقدم أكثر من ذلك حكومة النمسا في تهديدها، فتشجعت الصرب، وتكونت في داخلها جمعيات نجحت في إثارة أهالي البوسنة والهرسك. وتزامنت مع هذه الأحداث أزمة مراکش بعد زيارة قيصر ألمانيا لمراكش وتأييده سلطان المغرب في المحافظة على استقلاله. وهكذا تهيأت أوروبا عسكرياً ونفسياً للحرب، وأضحى الموقف الدولي كما وصفه سفير ألمانيا في باريس سنة 1914: «السلام تحت رحمة الأزمة المقبلة»⁽¹⁾. وبالفعل حدثت الأزمة عندما قُتل ولي عهد النمسا وزوجته على يد صربي من سكان البوسنة، من

(1) Ragner Robert, M. The Concise history of Modern Europe 1789-1914, London 1960. p. 340.

أنصار جمعية اليد السوداء، في يونيو عام 1914. وقد سبقتها محاولة فاشلة قام بها بعض الصربيين عندما ألقوا بقنبلة على ولي العهد، ولكنها لم تُصبه، وإنما أدت إلى إصابة مجموعة من المرافقين له.. وفي أثناء زيارة ولي العهد للجرجي، نجحت المحاولة الثانية، وأطلق الصربي الرصاص على ولي العهد وزوجته⁽¹⁾.

وارتفع الستار عن مجموعة متداخلة من اتجاهات استعمارية وخلافات عرقية وكبرياء قومي وسياسي وتنافس دولي بكل أبعاده، ووجد رئيس وزراء النمسا ووزير خارجيته «برتشولد» في حادث مقتل ولي العهد ذريعة للاشتباك مع الصرب رغم تحذيرات رئيس وزراء المجر. وتتابعت التحديات، وأرسلت النمسا بإنذار إلى الصرب بشروط يصعب على دولة مستقلة أن تقبلها - كما أعلن ذلك السير «إدوارد جراي» رئيس وزراء بريطانيا - ولكن سياسة النمسا استهدفت إنهاء كل تدخل روسي في المنطقة بالقضاء على استقلال الصرب حتى لا يستمر مسلسل تقوية القوميات داخل الإمبراطورية النمساوية ذاتها.. كما أن سياسة الانتظار والحذر التي طالما اتبعها سياسة النمسا حيال روسيا لم يعد لها مكان الآن. وهكذا اندفعت النمسا إلى ضرب بلجراد بعد أن رفض الصرب تنفيذ العقوبات، وأعلنت روسيا التعبئة العامة، وحافظت إنجلترا على السلام خلال فترة الإنذار، ولكن بعد تحرك القوات الألمانية بقيادة «فون كهل

(1) محمد حرب، البوسنة من الفتح حتى الكارثة، مرجع سابق، ص 74.

Kuhl ، من خلال غزو بلجيكا وانتشارها السريع⁽¹⁾، حتى أصبح واضحاً أن غزو فرنسا هو الهدف الثاني بعد غزو بلجيكا ولوكسمبرج. ودخلت بريطانيا الحرب فعلياً بعد 11 يوماً من الإنذار النمساوى وسقوط عمر فيزيه Pont de Fisie، وأصبحت جبهة الحلفاء (إنجلترا وفرنسا وروسيا) في مواجهة دول الوفاق (ألمانيا والنمسا والمجر). ولما كانت الدولة التي تسيطر على المضائق البحرية هي القادرة على إلحاق الضرر والعجز بروسيا⁽²⁾، فقد تراخت الدول المتحالفة في مطالبة الأتراك بالحياد، كما لم يتعجل الألمان اشتراكهم عسكرياً، واكتفوا من جانبهم بدور إثارة الأمة الإسلامية. وصرح البارون الألماني «فون فادنجهاييم» قائلاً: «إذا استطعنا أن نشر هذه الأمة ضد الإنجليز والروس، أمكننا أن نرغم هاتين الدولتين على الاستسلام». ومن ثم تحركت تركيا في أكثر من اتجاه لإثارة الشعوب المسلمة، فنشرت سلسلة من الفتاوى كتبها شيخ الإسلام - وهو صاحب أرفع منصب ديني في الدولة - ووُزعت هذه البيانات على جميع الأقطار الإسلامية. وبجانب الفتاوى، صدر للألمان سيل من نشرات الدعاية الألمانية والعربية، ولم يتخلف القوميون العرب، مثل الشيخ «عبد العزيز جاويز» و«محمد فريد» رئيس الحزب الوطني المصري، عن المشاركة بكتابة البيانات التي تحضّ العالم الإسلامي على التصدي للقوى الأجنبية المعادية بمختلف اللغات، ووُزعت هذه البيانات في مصر والهند

(1) Prelegede general Deberney lamarche sur paris 1914 Payot. Paris 1929. p. 32-33.

(2) Andre Mondelstion- Le Sort de L' empire ottoman- Payot, Paris 1914. p. 552.

والسودان وإيران وأفغانستان وتركيا وغيرها. وهكذا اندفع القوميون العرب لمؤازرة العثمانيين رغم عوامل الخلاف والفرقة الناشبة بينهم واعتراضهم على أسلوب الاتحاديين في التتريك والطورانية وتغليب العنصر التركي على جميع عناصر الدولة، فجاء موقفهم الجديد وليد خوف من خطر أكبر تحسبوه، وهو الاحتلال الأجنبي. ويتشابه موقف القوميين ذلك مع موقف الزعيم المصري «مصطفى النحاس» عندما وافق على تولي رئاسة الوزراء في مصر بعد أن طلبت القيادة البريطانية في مصر من الملك «فاروق» استدعائه لتولي الوزارة في الفترة الحرجة المتمثلة في اقتراب دول المحور من الأراضي المصرية لضرب القوى البريطانية فيها، فحرص الإنجليز على الاستعانة بحكومة شعبية لفرض الاستقرار والهدوء في المنطقة.. وإزاء الخطر الهتلري المدمر، لم يجد الزعيم المصري أي حرج في تولي الحكم على أسنة الرماح - كمقولة الملك وحاشيته - حماية للبلاد من خطر أكبر يتهدها بوصول الجيوش الألمانية!

الفصل

الثاني

نهاية النفوذ العثماني في البلقان

اشتراك الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى

جاء إعلان تركيا الاشتراك في الحرب، في نوفمبر عام 1914، بإغلاق مضيق البسفور والدردنيل لقطع اتصال الحلفاء بروسيا. وكانت الحكومة التركية قد عقدت معاهدة سرية دفاعية مع ألمانيا في 2 من أغسطس، وهو نفس اليوم الذي أعلنت فيه ألمانيا الحرب على روسيا، وتعهدت تركيا بموجب هذه المعاهدة بمساعدة الألمان ضد الروس، حتى إنها أرسلت أسطولها في 29 من أكتوبر لضرب الموانئ الروسية على البحر الأسود. وكانت بريطانيا قد ارتابت في الاستعدادات العسكرية التي سبق للأتراك أن أجروها في الجزيرة العربية في مطلع سنة 1914 إثر التقارب العثماني - الألماني، وخطورته في التغلغل الألماني داخل الإمبراطورية العثمانية مع نهاية الحرب البلقانية. وكانت تركيا في مركز تستطيع فيه أن تهدد مصالح بريطانيا في نقطتين هامتين بفضل استيلائها على الشام والعراق، وكذلك لتبعية مصر إليها وسيطرتها على قناة السويس من جانب، وعلى رأس الخليج العربي من جانب آخر.. كما كان بإمكان الأتراك اتخاذ مراكز عسكرية عديدة على طول ساحل البحر الأحمر لَبَثَ

الألغام التى تدمر الأسطول البريطانى، فضلاً عن وجود حامية عثمانية فى اليمن.

وإزاء ذلك، سارعت بريطانيا بتشديد قبضتها على اليونان بموافقة رئيس وزرائها «فتريلوس» بالرغم من معارضة الملك «قسطنطين» بعد أن صارت البلقان تحت سيطرة دول الوسط عدا منطقة سالونيك⁽¹⁾، وحرصت بريطانيا على منع زحف الأتراك نحو قناة السويس لإحكام سيطرتهم على البحر المتوسط حتى لا يضعفوا القوات البريطانية المرابطة عند القناة، ومن ثم تضطر إنجلترا لجلب فرق أخرى من المناطق الغربية، فيخف الضغط هناك على الألمان⁽²⁾! هذا إضافة إلى عدم اطمئنان بريطانيا لموقف المصريين تجاه الدولة العثمانية؛ فقد وجدت أجنحة متميزة من السياسيين تميل معنوياً إلى جانب الدولة العثمانية التى تواجه خطراً يهدد وجودها كاملاً. المهم أن إستانبول صارت تمثل أحد المحاور المهمة فى مجريات الحرب، سيما أن سقوط المضائق فى يد الحلفاء سيؤدى إلى إجبار اليونان على الانضمام إلى صفوف الحلفاء، وكذلك رومانيا وبلغاريا؛ أى خروج أوروبا بأكملها من ملك تركيا، إضافة إلى فتح الطريق أمام أطماع روسيا.. ولذا دارت معارك غاليبولى بين الحلفاء والأتراك فى وحشية منقطعة النظير، وقدم الأتراك ملحمة بطولية فذة فى مقاومة الأسطولين الفرنسى والإنجليزى، وكذلك فى إحراز انتصار على الحلفاء وتكبيدهم

(1) Driault Edward, La question d'orient' 7 ed. Filex Algan' 1917. p. 390.

(2) لطيفة محمد سالم، مصر فى الحرب العالمية الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984م، ص 36.

خسائر بشرية ضخمة، الأمر الذي أثار الرأي العام البريطاني، حيث عارض مبدأ تعريض جنودهم للأخطار في منطقة شديدة القسوة في المناخ والتضاريس من أجل خدمة الجيوش الروسية وتوصيل المؤن إليها⁽¹⁾. وقد تدخلت فرنسا في القتال من أجل استعادة كرامتها الوطنية واستخلاص منطقتي الألزاس واللورين من ألمانيا، أما إيطاليا - ذلك الفرع الفقير في العائلة الأوروبية - فقد أعلنت حيادًا مُثَمَّنًا؛ أي أن تتدخل مع الطرف الذي يتيح لها مكاسب أكبر دون أن تشارك بقواتها العسكرية فقط.

وهكذا تتابعت أحداث الحرب الواقعة حتى قيام الثورة الشيوعية في روسيا، والإطاحة بالحكم القيصري فيها، وانسحاب قواتها من المعارك العسكرية، وعقدتها صلح برست ليتوفسك مع الألمان في 2 من مايو عام 1918م، بل والإعلان عن الاتفاقات السرية المبرمة مع الحلفاء لاستقطاع ولايات الدولة العثمانية، ومنها الولايات التي وعدت بريطانيا وفرنسا عرب الجزيرة العربية باستقلالها عن الدولة العثمانية ومنحها لهم.

كذلك عقدت ألمانيا معاهدة مع بوخارست ورومانيا تنازلت فيها الأخيرة عن منطقة دبروجه لبلغاريا، وكان مؤدَّى هذا زلزة شديدة في جناح الحلفاء لم تعوضه إلا مسارعة الولايات المتحدة بالاشتراك في الحرب إثر نشوب حرب الغواصات التي أشعلتها ألمانيا للخروج من

(1) مذكرات السفير الأمريكي في الأستانة، مستر هنري مرغنتو، تعريب فؤاد صروف، مطبعة المقطم 1923م، ص 24.

الحصار الاقتصادي الذي ساهمت فيه الولايات المتحدة إلى جانب الحلفاء منذ بداية الحرب، فكان حيادها مشوبًا بالميل نحو الدول الديمقراطية - أى الحلفاء - في الحرب الدائرة. وبذا انتهى التقدم الألماني الذي تم إحرازه في المرحلة الأولى من الحرب، ورجحت كفة الحلفاء.

ومما يجدر ذكره، الإشارة إلى دور الصهيونية العالمية والمستشارين اليهود الذين أحاطوا بالرئيس الأمريكي 'ودرو ويلسن' في دفع الكونجرس للموافقة على اشتراك الولايات المتحدة عسكريًا في الحرب، ومن ثم توالت الخسائر على دول الوسط. وكانت تركيا تحارب في تسع جبهات حتى تمت الهزيمة، وأعلنت تركيا استسلامها في هدنة مودروس في 3 من أكتوبر عام 1918 قبل أن تقرر ألمانيا عقد الهدنة بأحد عشر يومًا. وشملت بنود هدنة مودروس = على خلاف القوانين الدولية للهدنة = نقاطًا خاصة بالمضائق التركية وفتح بوغازي البسفور والدردينيل أمام الحلفاء وتأمين المرور في البحر الأسود، بل وتسليم جميع السفن التركية. وقام المنتصرون باحتلال القلاع المقامة على المضائق. وهكذا حصلت بريطانيا والحلفاء عن طريق بنود الهدنة على ما عجزوا عنه بالقوات المسلحة! وتوضح هذه الهدنة إلى أى مدى كانت الرغبة في إذلال الدولة العثمانية، حيث أطاحت بكل مظاهر سيادتها على أراضيها ومياهها الإقليمية، وكان تحقيق ذلك هدفًا استراتيجيًا عملت له الدول العظمى لتحديد الورثة الجدد للدولة العثمانية⁽¹⁾، وكان سقوط ألمانيا بمثابة رسالة أوروبية لألمانيا بأن التقدم في

(1) Edward Eriault, op. cit p. 416.

الاستعمار والتاريخ يشبه التطور في الطبيعة؛ يبدأ بالتدريج ولا يبدأ بالقفز!⁽¹⁾

معاهدة سيفر، وتعيين الحدود التركية الجديدة

حسنت هذه المعاهدة تجزئة الدولة العثمانية والاستقطاعات المتتالية منذ القرن الثامن عشر. وقد أُجِّل إبرام معاهدة سيفر حتى أبريل عام 1920 لأن المؤتمرين في معاهدات الصلح عام 1919 لم يجدوا داعيًا للتعجل في مسألة تركيا على اعتبار أن هذه الدولة أصبحت وشيكة السقوط من تلقاء نفسها، ولا سيما بعد الهجوم اليوناني لمواصلة الاستقطاعات من الأتراك بعد هزيمتهم العسكرية. وكانت بريطانيا على رأس المؤيدين لهذا الاتجاه، فكانت تعد لاستراتيجية جديدة في هذه الدولة بإدخال طرف جديد في الحرب وهو اليونان، وكان نجاح تلك الخطة سيحقق لها وضعًا مميزًا في تركيا بعد أن أعلنت الولايات المتحدة ابتعادها عن مؤتمرات السلم التي جرت على الساحة الأوروبية، ورفضت المشاركة في تكريس الأوضاع الدولية الجديدة، أو مجرد تأييد بنود معاهدات الصلح المختلفة، أو الموافقة على فرض الانتداب الأمريكي على المناطق الشائكة في أرمينيا أو في تركيا، الأمر الذي أضعف معاهدات الصلح في الواقع.

وما يعنينا في بحثنا هذا هو تعيين الحدود التركية الجديدة التي تناولتها

(1) op. cit. p. 418.

معاهدة سيفر، حيث استقطعت أدرنة، ولم يَبْقَ لتركيا في القارة الأوروبية سوى الرومللى وإستانبول. وتحدد خط شطلجة في تركيا أوروبا، ولم يستقطع من حدود تركيا سوى المنطقة الجنوبية في الشاطئ الجنوبي من أدرنة، وشرقاً جنوبى مرعش وديار بكر، إلى الحد الشرقى في جنوب غرب أرمينيا، ويمتد الخط شمالاً من أرمينيا حتى منطقة أراياط، وفي الشمال الغربى حتى جنوب باطوم. وبالنسبة لمنطقة أزمير، فقد بقيت تحت السيادة الاسمية لتركيا، مع بقاء حامية وقوة شُرطية يونانية، وكذلك عنتاب وأجزاء من تراقيا الشرقية على حدود شطلجة؛ الأمر الذى يتيح وجوداً يونانياً لا يبعد عن العاصمة التركية إلا بضعة أميال قليلة⁽¹⁾.

وإضافةً إلى ذلك، شملت معاهدة سيفر نظام حكم مزدوج بين الحكومة التركية في إستانبول وحكومة اليونان، فأعطت كلاً منهما صلاحية الرقابة الدولية على حركة المرور بالمضايق، وأغفلت المعاهدة وضع حكومة أنقرة التى حاربت اليونانيين في أزمير وقامت بحركة جهاد شاقة ضدها، وكانت المعاهدة بهذا تضع بذور فتنة تنشأ فيما بعد بين حكومة الأستانة وحكومة أنقرة برئاسة «مصطفى كمال». كما أنهت المعاهدة جميع المعاهدات السابقة التى أقرت أوضاع الحدود التركية لتحقيق تسوية جديدة تحقق التوازن الدولى الجديد ومصالح الدول الكبرى، مع إرضاء الجوانب القومية بقدر المستطاع. وقد فُرِضت بنود معاهدة سيفر على الساحة التركية كافة، وبدأت مرحلة الكفاح الوطنى

(1) عبد العزيز محمد الشناوى، مرجع سابق، ص 249-250.

التي أدت إلى تحركات ناجحة وانتصارات حاسمة على اليونانيين، الأمر الذي اضطر الدول الأوروبية إلى المطالبة بعقد مؤتمر لوزان وتثبيت أوضاع جديدة في المناطق التركية.

معاهدة لوزان، ونهاية الدولة العثمانية

وفي 24 من يوليو عام 1923م بدأ مؤتمر لوزان أعماله، وتصدرت مسألة تسوية الحدود بين اليونان وتركيا مهام المؤتمر، سيما في منطقة تراقيا الشرقية. وجاء إصرار المفاوض التركي على معاملتها بنفس أسلوب وضع تراقيا الغربية التي تسيطر عليها اليونان⁽¹⁾. الجدير بالذكر أن تراقيا الغربية كانت بأكملها تتبع الدولة العثمانية حتى عام 1913، وفي معاهدة سيفر مُنحت لليونان⁽²⁾؛ لذا أصر المفاوض التركي على بدء المحادثات من حيث انتهت المعاهدات القديمة قبل الحرب العالمية الأولى. كما أعلن المفاوض التركي أن منطقة كراجاش تدخل ضمن حدود تراقيا الشرقية حسب ما تفسر اتفاقية مودانيا سنة 1920، والتي أقرت دخول منطقة أندرينبول على الشاطئ الشرقي لنهر المارتيزا، وكذلك مناطق كوليكى وموجاس و«مصطفى باشا» التي يمر بها الخط الحديدي الذي يصل حتى إستانبول.

وبالنسبة لدولة الصرب، فقد طالب ممثلها بإقامة منطقة محايدة بطول الحدود شمالاً وغرباً تراقيا الشرقية لتكون فاصلاً بينهم وبين الأتراك.

(1) D.D.F. Conference de Lausanne.

(2) Ibid. P. 48.

واعترض الوفد التركي على إقامة هذه المنطقة المحايدة باعتبار أن نهر المارتيزا يعد حدًا طبيعيًا. وأصر الوفد الصربي على رأيه على اعتبار أن ذلك حيوى بالنسبة لكل من بلغاريا واليونان وتركيا. واتجه المؤتمر إلى ضرورة إعطاء بلغاريا منفذًا على بحر إيجه، ورأى بقاء تراقيا الغربية على وضعها السابق المحايد تحت إشراف الدولة العظمى؛ لأنها تتميز بوجود شبكة خطوط حديدية، كما أنها تخدم تجارة الدول الشرقية كبلغاريا ورومانيا ويوغسلافيا. ونظرًا لوجود الأقليات القومية متداخلة في المناطق المتنازع عليها، أصر الوفد التركي على أهمية إجراء استفتاء في تراقيا الغربية، رغم تأكيد الوفد اليوناني على وجود أغلبية يونانية فيه، ومن ثم قدم كل من الطرفين ما يؤيد رأيه. وأوضحت البيانات التركية أن عدد الأتراك في كل من الجازاس وديداجاتش وسوفولو 334814 نسمة، والبلغار 29276 نسمة، واليونانيين 33904، واليهود 1480⁽¹⁾. وأخذ كل من المفاوض التركي ونظيره اليوناني في ترديد الأحقية التاريخية لكل منهما في المنطقة، وكيف أن الوجود اليوناني سبق الوجود التركي بعشرين قرنًا في المنطقة. وأورد المفاوض التركي ما يخالف ذلك حسب ما تقرر في كتابات بعض المؤرخين، مثل «ماسبيروور Masperor» في كتابه «قضية شعوب الشرق»، وفي كتاب الدكتور «مورجان» عن منطقة القوقاز، حيث قرر أن سكان الأناضول من أصل تركي⁽²⁾.

(1) D.D.F. op. cit. P. 36.

(2) Ibid, P. 32.

هذا، مع الأخذ في الاعتبار أن الفلاح التركي هو صاحب الأرض دائماً، أما اليوناني فإنه يعمل بحرفة التجارة، ولم يتمكن من احتلال الأرض ولو بنسبة قليلة⁽¹⁾.

أما فيما يتعلق بتنازل تركيا عن تراقيا الغربية عام 1915، فأرجعه إلى أنه كان وليد ضغط أوروبي لم يصدق عليه البرلمان التركي، ومن ثم لا يُلزم المفاوض التركي في لوزان. خلاصة الأمر أنه تقرر في معاهدة لوزان إعادة تراقيا الشرقية بأكملها، بما فيها أدرنة ومنطقة كراجاش وجزء لا يستهان به في الجزء الغربي من الأناضول. وتناولت المعاهدة موضوع جنسية الأتراك الذين يقيمون في المناطق التركية المستقطعة، حيث تقرر أن يصبحوا من مواطني الموطن الجديد بالشروط المقررة في قوانين تلك الدول، مع احتفاظ مَنْ لم يتجاوز عمره 18 عاماً بحق اختيار الجنسية التي يرغبها⁽²⁾.

ونصت المعاهدة على حماية الأقليات، وبالنسبة للتعويضات الحالية، تنازلت تركيا عن حقها في المطالبة بخسائر الحرب، أما اليونان فقد احتفظت بهذا الحق. كما منحت المعاهدة الدول المنفصلة عن تركيا حق الاستيلاء على أموال الدولة التركية الموجودة بها. وتناولت المعاهدة المسائل الاقتصادية وحقوق وأملاك الدول الموقعة، كما عالجت أيضاً مسألة أسرى الحرب، والأحكام الصادرة من السلطات التركية، ومصالح

(1) Ibid, P. 33.

(2) عبد العزيز محمد الشناوي، مرجع سابق، ص 293.

رعايا تركيا منذ هدنة مودروس حتى لوزان⁽¹⁾، وجميع سجلات الإدارات المدنية والقضائية والمالية والأوقاف. ونصت المعاهدة على منح مدارس الأقليات دون تدخل من الحكومة التي يجب عليها تمويل تلك المدارس، والتعهد أيضًا بحماية المؤسسات الدينية. وتعهدت تركيا ببقاء البطريركية اليونانية في إستانبول، رغم أنها لم تكن مركزًا دينيًا فحسب، وإنما كانت حامية المخططات الأوروبية في المنطقة، ومركزًا لحفظ الأسلحة، بل كانت أيضًا مركزًا للجاسوسية وإشعال الفتن، حتى لقد كان لها دور بارز في تشجيع ومساندة الجيش اليوناني في احتلاله أزمير سنة 1919.

وأغفلت المعاهدة تحديد حقوق الأقليات التركية في الأماكن المستقلة من الدولة، حيث ترك الآلاف منهم تحت رحمة اليونان والبلغار وغيرهم، وضاعت تلك الحقوق عندما أعلن «مصطفى كمال» - الحاكم الجديد لتركيا الحديثة - أسلوبه في السياسة الخارجية بمقولة "سلام في الداخل و سلام في الخارج"، وتبع ذلك بعقد أكثر من معاهدة مع الدول المحايدة لإقرار السلام. واستمرت أوضاع المسلمين في الدول الجديدة تتأرجح هبوطًا وصعودًا تبعًا لنوعية الحكم في المنطقة.

أوضاع المسلمين في البلقان تحت الحكم المسيحي

* المسلمون في بلغاريا

كانت معاهدة برلين التي أنهت الحروب الروسية - التركية، والمعقودة

(1) فاضل حسين، مرجع سابق، ص 12.

في 13 من يوليو عام 1878 بعد معارك استمرت قرابة سبعة أشهر، بمثابة شهادة ميلاد لدولة بلغاريا المستقلة. وخضع المسلمون لحكم البلغار المسيحيين لأول مرة منذ أكثر من 500 عام⁽¹⁾، وانحسر وضعهم المتميز بعد استيلاء الحكومة البلغارية على أملاكهم من أراضي زراعية ومنازل وماشية وخلافه. وكان الأتراك متفوقين على البلغار، سواء في العدد أو الجوانب المادية. وكان أكثر من 80% من الأراضي في حوزة الأتراك⁽²⁾. وكان يقيم في ست محافظات من إقليم الدانوب نحو مليون ومائة وثلاثين ألف بلغاري، ومليون ومائة وأربعين ألفاً من الأتراك، ويوجد أربعمئة وثمانون ألف بلغاري في سنجق بلوفديف وسعليقن في أدرنة، مقابل ستمئة وواحد وثمانين ألف تركي⁽³⁾.

وتشكل منطقة أدرنة (أدرين) والدانوب مجموعة من الجزر ترتبط مباشرة بالعاصمة التركية إستانبول، سواء من البر أو البحر، وكانت لها أهمية اقتصادية⁽⁴⁾. وبعد استقلال بلغاريا، استمرت الأغلبية التركية متفوقة، حتى شرعت القوى الحاكمة في طرد أعداد ضخمة من المسلمين، واستقدمت البلغار المقيمين خارج البلاد. وكان البلغار لعدة قرون متوزعين بين بلغاريا ومقدونيا وتراقيا، وكان النزاع مبرراً دائماً بينهم وبين

(1) محمد حرب، المسلمون في آسيا الوسطى والبلقان، مرجع سابق، ص 387.

(2) Documents Diplomatiques Francaises. Op. cit. p.22.

(3) Bilal N. Simsa, the turks of Bulgaria 1860-1885. london 1984. p.5.

(4) Ibid.

اليونان في الجنوب، وبينهم وبين الأتراك في الشرق⁽¹⁾، وتمكن العنصر البلغارى من اغتيال حقوق وأملاك المسلمين⁽²⁾.

ولم تنسحب القوات الروسية إثر عقد معاهدة استقلال بلغاريا، بل واصلت بوحشية مطاردة الأتراك المسلمين بعامة في بلغاريا ودفعتهم للخروج من ديارهم، فهاجر في تلك الفترة مليون تركى، أما الذين بقوا فقد عانوا من التشرد والجوع، وبلغت نسبة الوفاة بينهم أكثر من 60% في بعض المناطق، الأمر الذى صرف المهاجرين عن محاولة العودة إلى بلادهم بعد انتهاء الحرب. وبذلك أضحي الأتراك فى بلغاريا يمثلون أقلية، وإن استمروا يحافظون على نسبتهم العددية بسبب الزيادة الطبيعية. هذا إضافة إلى تمكن البلغار من ضم مناطق تركية أخرى إلى دولتهم تقطنها أعداد ضخمة من الأتراك بجانب أقليات مسلمة مثل «الترترز» و«الجدييس» و«البوماك». ولكن بسبب السياسة البلغارية المتعسفة، بدأت نسبة الأتراك فى الانخفاض منذ عام 1878.

وفى هذا المقام، نورد إحصائية بعدد الأتراك والمسلمين المقيمين فى بلغاريا خلال الفترة ما بين عامى 1878- 1956.

(1) جرانت وورنجرلى، أوروبا فى القرن التاسع عشر والعشرين 1798- 1950، ترجمة بهاء فهمى، مراجعة أحمد عزت عبد الكريم، مؤسسة سجل العرب، ص 269.

(2) محمد حرب، المسلمون فى آسيا الوسطى ودول البلقان، المركز المصرى للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركى، ص 194.

الفصل الثاني: نهاية النفوذ العثماني في البلقان

السنة	الأتراك	المسلمون الآخرون
1887	6.2331	676212
1892	596728	643258
1900	539656	643300
1905	505439	603084
1910	504560	603584
1926	577550	825774
1934	618628	821998
1956	665028	؟

وفي المقابل، نجد زيادة مضطردة في أعداد البلغار خلال نفس الفترة:

السنة	البلغار
1882	مليوناً نسمة
1887	3 ملايين نسمة
1893	3.300
1910	4.300
1926	5.400
1565	7 ملايين

مراحل تذويب الأقليات التركية والمسلمة في المجتمع البلغاري

مرت الأقلية التركية والمسلمة بثلاث مراحل متميزة من سياسات الحكومات البلغارية المتعاقبة.

أولاً: في الفترة ما بين عامي 1878-1886، وهي الفترة الانتقالية لانفصال الدانوب وأدرين - أو الروملى الغربى - عن الإمبراطورية العثمانية. وقد خَوَّل القانون الجديد للدولة السيطرة والإشراف على جميع الأقلية المسلمة، سواء في المجال الدينى أو التعليمى أو السياسى. وتعاونت صور التدخل حسب تزايد تفرد الإدارات المحلية. وفي المجالات التعليمية، حُرمت المدارس التركية من مصادر تمويلها الخارجية، باستثناء بعض تبرعات الأتراك المقيمين في الدولة، على حين حظيت المدارس البلغارية بالعون المادى والثقافى من المنظمات المسيحية الأوروبية⁽¹⁾، وكذلك من الحكومات البلغارية. ومن الجدير بالذكر أن الروملى الغربى كان يحظى في العهد العثمانى بإصلاحات عديدة في الإدارة والتعليم المتطور نظراً لما تتمتع به هذه المناطق من أهمية استراتيجية؛ فهي تمتد من الدانوب إلى البلقان. كما حصل ذلك الإقليم أيضاً على نصيب وافر من الإصلاحات السياسية التى دعا إليها بعض رجال العهد العثمانى الذين يسمون بالمستنيرين، والذين تلقوا تعليمًا أوروبيًا، أمثال «رشيد باشا» الصدر الأعظم و«مدحت باشا»⁽²⁾، حيث

(1) Bilal N. Simsa. Op. cit. P5.

(2) Ibid, P. 16.

افتتحت منذ عام 1853 - وخلال ثلاث سنوات فقط - ثلاث مدارس ثانوية تركية تسمى مدارس رشدي، متخذة من النهج الأوروبي أسلوبًا، وكانت هذه خطوة متقدمة بالنسبة لمقاييس ذلك العصر⁽¹⁾، فازدهرت تلك المدارس عن مثيلتها من المدارس التركية التي بقيت على أحوالها القديمة.

وبعد انفصال بلغاريا عن الدولة العثمانية، تلقت النظم التعليمية للمدارس التركية عدة ضربات متتالية لإضعافها وهدم معدل النمو الإصلاحي الذي جرى خلال 30-40 عامًا من الحكم العثماني، ومن ثم جاء تطبيق بنود معاهدة برلين مجافيًا للواقع تمامًا، فأغفلت المعاهدة النظر إلى أهمية المدارس الخاصة - أي مدارس الأتراك - تفرقة لها عن المدارس الحكومية البلغارية، وبالتالي لم تتل مدارس الأتراك أى اهتمام من جانب الحكومة البلغارية، فواجهت انهيارًا في عشر السنوات المذكورة نتيجة للهجرة الجماعية التي بلغت 25 ألف مهاجر في فترة ستة أشهر، وكذلك لخضوع بلغاريا نحو عام كامل بعد نهاية الحرب التركية - الروسية لسيطرة الروس، حتى تم الاستيلاء على الرومللي الشرقي الذي كان يتبع الدولة العثمانية، ومن ثم تدهورت البنية التعليمية، ولم يتمكن الأتراك من إنشاء أى مدارس جديدة، أو حتى ترميم ما هُدم منها⁽²⁾.

وفي الفترة ما بين عامي 1886 و1894، حصل الأتراك على بعض

(1) قدرى قلجى، مدحت باشا أبو الدستور العثماني وخالف السلاطين، دار العلم للملايين، ص 5.

(2) Ibid, P. 7.

الحقوق الدينية والاجتماعية، كما بُذلت بعض الجهود في العناية بالأحوال الاقتصادية والتعليمية. وتتضمن إحصائية عام 1896 الخاصة بالمدارس أعداد التلاميذ والمدرسين بها، وذلك على النحو التالي:

الأترك	مدارس ابتدائية	مدرسون	تلاميذ
1243	1404	69636	
25	38	1313	
16	18	679	
1284	1460	72028	

وبعد أحداث الحرب العالمية الأولى وتوقيع معاهدة نويلى في 17 من نوفمبر سنة 1919 بشأن بلغاريا، تنازلت الأخيرة عن غرب تراقيا التى كانت قد استولت عليها من تركيا عام 1913، وكانت منفذها الوحيد المباشر على البحر، كما تنازلت عن ثلاث مناطق مهمة من أراضيها ليوغسلافيا، إلى جانب بعض التغيرات في حدودها مع اليونان⁽¹⁾. وهكذا وُضع البلغار تحت سيطرة الصرب، وأضحت هذه المناطق التى تم نزع سلاحها بالكامل منطقة لحرب العصابات بعد اشتعال الصدامات بين القوميات والكنائس المختلفة. وفي عام 1928، أخذت المنظمات الثورية المقدونية، التى كان مقرها في بلغاريا، بشن هجمات لحماية البلغار في

(1) عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص 147.

مقدونيا من اضطهاد اليوغسلاف، ولم تعترض حكومة صوفيا على خروج هذه الهجمات من دولتها. وكانت بلغاريا - بحكم كونها الخصم المباشر ليوغسلافيا في مقدونيا - مكانًا ملائمًا للتحركات اليونانية والدبلوماسية الإيطالية أيضًا، فرفضت في أغسطس عام 1928 الانضمام إلى الطلب الذي قدمه ممثلًا بريطانيًا وفرنسيًا في صوفيا لدعوة حكومة بلغاريا إلى حل المنظمة الثورية المقدونية. وفي هذه السنوات التي لم يكن النفوذ الألماني خلالها قد استعاد قوته، أصبحت المصالح المتعارضة لفرنسا وإيطاليا هي التي توجه خط سير المنافسات الدولية في المنطقة الدانوبية والبلغارية⁽¹⁾، وكانت إيطاليا قد استغلت فرصة خلو الساحة في المنطقة الدانوبية من أهم قوتين كانتا موجودتين - وهما النمسا وألمانيا - بعد هزيمة 1914، فسعت إلى إقامة إشراف لها على بحر الأدرياتيك لتحقيق مصالح اقتصادية وسياسية واستراتيجية، سيما في عهد حكم «موسوليني» الذي رأى أن استتباب السلم في البلقان سيتيح لإيطاليا حرية العمل في مصالح حيوية أخرى⁽²⁾، ومن ثم أخذت الدعايات الإيطالية تبتدى احتقارها ليوغسلافيا الممزقة بالصراعات الدينية والسياسية بين الكروات والصرب. ولما كانت المشكلة بين بلغاريا واليونان تتمثل في مقدونيا، فإن الأقليات المسلمة عانت في تلك الفترة من التنظيمات الثورية التي وجهت

(1) بيبر رنوفان، تاريخ العلاقات الدولية، مرجع سابق، ص 326.

(2) المرجع السابق، ص 322.

سهامها إلى المسلمين أثناء صراعات مع اليونان، كما اتبع الحزب الفاشي نفسى النهج بعد وصوله للحكم في بلغاريا إثر الانهيار الاقتصادى والإفلاس السياسى والهزيمة الألمانية وخروج الدول الديمقراطية مشخة بالجراح، الأمر الذى ولد العجز عن التصدى لامتداد الحزب الفاشي في بلغاريا ومخططاته الإرهابية ضد المسلمين، كالتهمير التعسفى، وإذابة من تبقى منهم في المجتمع البلغارى⁽¹⁾، مع الحرص في ذات الوقت على الإفادة من الأيدى العاملة المسلمة في بلغاريا وإن حرموهم من صرف رواتبهم بسهولة، كما أجبروهم أيضا على تغيير أسمائهم المسلمة بأسماء نصرانية، ومن وسائل ذلك: رفض تسجيل أسماء التلاميذ المسلمين في المدارس إلا بعد تغييرها إلى أسماء نصرانية! كما شمل الاضطهاد منع دفن الموتى المسلمين حسب المراسيم الإسلامية، ومنع المسلمين من الاحتفال بأعيادهم الدينية، والاستمرار في غلق المساجد، ومعاقبة معارضى تلك السياسة بالسجن والتعذيب، بل والقتل الجماعى في الجبال بالرصاص، وتعقب زعمائهم في كل مكان. كما عاد التدخل الحكومى يعرقل خطوات التعليم التركى.

وفيما يلى بيان يوضح نسبة الانخفاض في الفترة ما بين عامى 1921 -

1943⁽²⁾:

(1) محمد حرب، مرجع سابق، ص 194.

(2) Ibid, P. 17.

السنة الدراسية	مدارس ابتدائية	المدارس العالية	المجموع
1921- 1922	1673	39	1712
1922- 1923	92	27	994
1930- 1937	397	27	545

وقد استمر معدل الانخفاض حتى وصل عام 1947 إلى 377 مدرسة، وصدر قانونٌ نص على دعم المدارس المسلمة عن طريق زيادة الضرائب الخاصة بها، وعلى ضرورة تدريس اللغة الإنجليزية إلى جانب اللغة التركية، سيّما في مادتي التاريخ والجغرافيا، إضافةً إلى تسهيل السماح للطلبة الأتراك بالتحويل إلى المدارس البلغارية بشرط النجاح في المواد البلغارية.

وهكذا تمكنوا من غلق العديد من المدارس المسلمة، وتحولت أعداد منها إلى البلغارية، وأودع المدرسون المسلمون المعارضون السجون بتهمة الخيانة والولاء للنظام الكمالي الحاكم في تركيا⁽¹⁾. ولم تتوقف معاناة الأقلية المسلمة حتى نشوب الحرب العالمية الثانية والافتقار إلى الاستقرار السياسي في بلغاريا بعد وفاة الملك «بوريس Boris» ووصول «سيمون الثاني» للعرش بمعاونة مجلس وصاية. وبدأت الصحافة البلغارية في الإشارة إلى الصداقة التاريخية التي تربط الأمة البلغارية بروسيا، وإن لم تتقدم أكثر من ذلك رغم دعوة الاتحاد السوفييتي المستمرة للدول

(1) مصطفى الزين، مرجع سابق، ص 259.

الخاضعة لألمانيا إلى التعامل معه، في حين طالب الحلفاء كلاً من بلغاريا ورومانيا بالتزام الحياد، فاضطرا إلى تجميد سياساتها خوفاً من إبدال نظام فاشي بنظام شيوعي.

الحرب العالمية الثانية ونتائجها على أحوال مسلمي البلقان

وحتى عندما كانت الجيوش الألمانية تحتشد على أبواب البلقان وتتأهب للانقضاض على دوله، اتفقت تركيا وبلغاريا على احترام كلٍّ منهما سيادة الأخرى⁽¹⁾ في سنة 1941، إلا أن بلغاريا لم تحترم الاتفاق، وأعلنت انضمامها إلى المحور، مفسحة المجال أمام الجيوش الألمانية لدخول المناطق الاستراتيجية في أراضيها رغم خطورة ذلك على الأتراك. وعندما احتلت ألمانيا كلاً من يوغسلافيا واليونان، عقدت تركيا معاهدة صداقة مع الألمان تعهد فيها هؤلاء باحترام سلامة الأراضي التركية. كما اضطرت تركيا إلى عقد معاهدة مع الاتحاد السوفيتي عندما اجتاحت قوات «هتلر» أراضيها، فخشيت تركيا أن يقوم «ستالين» بدوره بتهديد المضائق التركية.. على حين سعى الحلفاء لجذب الأتراك إلى جانبهم معلّنين ما يسمى بالحلف الكبير، وأعلن الرئيس الأمريكي «روزفلت» أن تركيا تدخل ضمن الدول التي تقدم المساعدات، وكان «عصمت إينونو» - خليفة «مصطفى كمال» في الحكم - قد حافظ على استمرار السياسة الكهالية في تجنب الصراعات الدولية، حتى لقد قيل إن الحلفاء عرضوا على الأتراك منحهم تراقيا

(1) Ibid, p. 28.

القريبة بعد اقتطاعها من اليونان، وكذلك بعض الأراضي البلغارية، إذا ما وافقت تركيا على المشاركة في أحداث الحرب العالمية الثانية، ولذلك سعى الحلفاء إلى طمأنة «عصمت إينونو» تجاه الاتحاد السوفييتي بأن الدول الشيوعية لا تسعى للتوسعات الاستعمارية؛ ولذلك فلن تقدم على غزو الأراضي التركية والمضايق البحرية. ولكن نظرية «إينونو» تحققت عندما استولى «ستالين» على أوروبا الشرقية التي استمرت مشدودة إلى عجلة الكرملين⁽¹⁾ حتى انهيار الاتحاد السوفييتي، وقد وعدت البولشفية الشيوعية عند استيلائها على بلغاريا وإنائها الحكم الفاشيستي الأقليات المسلمة بمراعاة أوضاعها باعتبار أن الشيوعية لا تعترف بجميع الأديان، ولا تفرق بالتالي بين مسلم ومسيحي، ودعت الجميع إلى التقدم بمطالبهم ومقترحاتهم⁽²⁾ بشأن إقرار الوضع المناسب. وبالرغم من حذر المسلمين من التطورات المنتظرة من الأحكام الجدد، إلا أنهم سارعوا بالإعلان عن مطالبهم، وبدعوا بالفعل في استرجاع بعض الحقوق، فنشطت دور الإعلام، وصدرت بعض الصحف التركية، وسُمع بعقد الندوات والمؤتمرات، فعُقد مؤتمر الزراعيين البلغاريين في صوفيا سنة 1945، وأصدر توصياته على النحو التالي:

- 1 - بقاء المدارس التركية الخاصة، مع دعمها مادياً بواسطة الحكومة.
- 2 - أن تكون الدراسة باللغة التركية، إلى جانب بعض المراجع البلغارية.

(1) مصطفى الزين، المرجع السابق، ص 260.

(2) Ibid. p. 31.

- 3 - أن يكون مديرو ورؤساء المدارس التركية من الأتراك.
 - 4 - ضمان الحقوق الاجتماعية للمدرسين كنظرائهم من البلغار، مثل الاستفادة من التأمينات الاجتماعية وبعض المزايا الاستثنائية.
 - 5 - مراعاة المساواة الكاملة بين المدارس التركية والبلغارية بأن يكون لخرجيها الحق في دخول الجامعات البلغارية دون إجراء امتحانات معادلة.
 - 6 - أن تتضمن الدراسة المقررات الدينية الإسلامية.
 - 7 - أن يمتلك الأتراك المدارس والأراضي المقامة عليها.
 - 8 - تعطى المدارس التركية تسهيلات في الحصول على مستلزماتها، وتعفى من الضرائب. كما يجب أن يتوفر في المدارس المستوى الصحي المناسب.
 - 9 - أن يتم افتتاح مدرستين لتدريب المدرسين الأتراك.
- كما طالب المؤتمر بإرجاع المدارس التركية التي استولى عليها الحكم الفاشي، وأعلن كذلك ضرورة رد أموال الأتراك المصادرة من سنة 1923 حتى سنة 1944. وانتهى المؤتمر، ولم تتقدم أحوال الأتراك في بلغاريا، واستمروا كمواطنين من الدرجة الثانية، ولم تستمر الاتجاهات الطيبة التي أبدتها الحكومة الشيوعية كثيرًا، فسرعان ما خرج الرئيس الشيوعي البلغاري «جورجي ديمتريوف» بمبدأ وجوب تحجيم دور الأتراك في البلقان. وفي ضربة واحدة عام 1946، تم تحويل المدارس التركية إلى

مدارس بلغارية قومية، وبذا انتهت مرحلة امتدت إلى مائة عام من نظام المدارس الخاصة التركية. وسيطرت الحكومة البلغارية على تعليم الأتراك، ثم وجهت الضربة الثانية للأقلية التركية عام 1958-1959 عندما صدرت القرارات الحكومية ببلغرة المدارس التركية، فأصبحت اللغة البلغارية هي الوحيدة التي تُدرس، وحُرم الأطفال الأتراك من تعلم اللغة الأم، ودُفع بأكثر من 150 ألف طالب تركي للتعلم بالبلغارية. واستعادت الحكومة الشيوعية الأساليب الفاشية في إجبار الأتراك على الهجرة إلى تركيا، فوصلها بين عامي 1949-1951 نحو 156 ألف تركي، ثم 130 ألفاً في المدة ما بين عامي 1969-1978. على أن الكثافة التركية السابقة لم تنقص؛ لأن الهجرة كانت من جانب الزيادات فحسب طبقاً لإحصائية عام 1956⁽¹⁾. وبمجرد إدراك هذه الحقائق الموثقة في الإحصائيات، سعت الإدارة الحاكمة إلى اتخاذ أساليب أخرى لتذويب الأقلية التركية في المجتمع البلغاري بالإغراء بالدعم الحكومي والتأمينات الاجتماعية. وقد استمرت سياسة البلغرة مع الحفاظ ظاهرياً على شعور الأتراك، حتى جاءت دعوة رئيس الدولة البلغارية «تيودور جيكوف» بضرورة طبع الكتب التركية في بلغاريا وألا يُسمح باستيرادها من الخارج، وبالفعل تم جمع المطبوعات التركية وأصولها وحرقها تنفيذاً لقرارات الدولة. ومن المؤسف أن الحكومة البلغارية كانت تدّعي دائماً صداقتها لدولة تركيا رغم الانتهاكات الحادة لحقوق الأقلية التركية. ومنذ عام 1980 اشتدت

(1) Ibid, p. 33.

عملية تغيير الأسماء، وأعلنت الحكومة عام 1984-1985 الحرب على الأقلية التركية، فاستخدمت كل وسائل القهر لإنجاح المخطط، وطردت الأتراك من أعمالهم الحكومية إذا ما احتفظوا بأسمائهم الإسلامية، وأجبرت النساء على الابتعاد عن الزي الإسلامي وأن يلبسن كبقية البلغاريات⁽¹⁾. وشارت جموع الأتراك، ونددوا بـ "الفاشية الحمراء" وبـ "القتلة مصاصي الدماء" وغيرها من النعوت التي تدين النظام الحاكم⁽²⁾. وواجهت الحكومة المظاهرات بزيادة الإجراءات القمعية، وأودع الآلاف السجون، ووقف العالم مترقبًا ما ستسفر عنه الأمور في مواجهة مجموعة من المعاهدات الدولية التي عقدها دولة البلغار، والتي توجب أن تُحترم حقوق الأقليات الدينية والسياسية، هذا إضافة إلى أن هذه المعاهدات قد نصت على حق دولة تركيا في أن تتدخل فيما يخص الأقلية التركية لدى الدولة البلغارية، ليس لأسباب دينية وتاريخية فحسب، ولكن أيضًا لأسباب سياسية وقانونية. وقد ورد هذا في معاهدة برلين عام 1878، وفي بروتوكول إستانبول عام 1909، وفي معاهدة 29 من سبتمبر سنة 1919، وفي معاهدة الصداقة التركية - البلغارية عام 1925، وفي معاهدة الزراعيين عام 1947، وكذا وثيقة حقوق الإنسان 1945 - 1975، بل واتفاقية الهجرة بين تركيا وبلغاريا عام 1968⁽³⁾. وهكذا نجد في سلسلة اضطهاد الأقلية المسلمة وضوح تجاهل النظام الحاكم البلغاري

(1) محمد حرب، مرجع سابق، ص 389.

(2) Ibid, p. 36.

(3) Ibid, p. 31.

للقوانين الدولية، وذلك للتخلص تمامًا من الأتراك بعد أن ثبت أن أسلوب التهجير قد فشل في تنفيذ مخططاتهم، فلم يتمكنوا من توصيل عدد الأتراك إلى الصفر في بلغاريا. وإزاء ذلك تصاعدت أصوات رجال السياسة والإعلام تطالب بعودة الأقلية التركية بالكامل إلى وطنها الأم بدعوى أن الهجرات التركية كانت تتجه دائمًا صوب تركيا في كل الظروف، ولم تتجه - مثل كثير من هجرات الشعوب - إلى العالم الجديد في أمريكا أو أستراليا، هذا إضافة إلى أن أتراك بلغاريا كانوا دائمًا وأبدًا لا يستنكرون أن يقال عنهم إنهم جزء من شعوب الأناضول.

رد فعل حكومة أنقرة

تحركت الأوساط الشعبية والرسمية في تركيا لمواجهة مؤامرة بلغرة الأتراك بالقوة؛ ففي 7 من يناير عام 1985، أبلغ مستر «يلمظ» - وزير الدولة التركية - بالإجراءات التعسفية السابقة، فأعلن استعدادة لاتخاذ جميع الإجراءات اللازمة لوقف تعدى حكومة البلغار، وطالب الأقلية التركية بالتزام الهدوء أطول فترة ممكنة.

وفي 15 من يناير في نفس العام، أعلن متحدث باسم وزارة الخارجية التركية أن المشكلة المطروحة ما زالت تحظى بتأييد الدولة، وأن الجهود اللازمة قد اتخذت بالفعل لحل مشكلة الأتراك الذين وصل عددهم في بلغاريا إلى حوالي مليون ومائة ألف تركي. وبعث الرئيس «كنعان إيقيرين» برسالة شخصية إلى الرئيس البلغاري «تيودور جيكوف»، ولم تتوقف

الصحافة التركية عن نشر بيانات وتصريحات في هذا الشأن، وفضحت جريدة «ملت» التركية ما ترتكبه السلطات البلغارية، وأعلنت أن الحكومة التركية تحرص على حل المشكلة مع الحفاظ على العلاقات الرسمية البلغارية. وفي 14 من فبراير عام 1985، أعلن رئيس الوزراء التركي «تورجوت أوزال» إثر اجتماع له مع رئيس الجمهورية، بأنه لن يتأخر عن فتح أبواب تركيا لاستقبال أشقاء الدم في بلغاريا. وفي 20 من فبراير، أعلن المجلس الوطني الكبير في أنقرة أنه قد تمت مناقشة وضع الأشقاء في الدم في جلسة سرية انتهت بضرورة إجراء مفاوضات على أعلى مستوى مع الجانب البلغاري، وأن ذلك لا يعد تدخلاً في شئون بلغاريا بأي حال. ثم صدر بيان حكومي تركي فيما يتعلق بالاهتمام بأترك بلغاريا ورعايتهم، وفيما يتعلق بما نُشر من تقارير الوكالات الرسمية العالمية للأنباء التي تفيد أنه في الشهور الأخيرة اتخذت إجراءات عنيفة تكاد تصل لحد القتل الجماعي بما يشكل عدواناً لا يمكن التغاضي عنه⁽¹⁾، وطالب حكومة بلغاريا بالرد رسمياً على هذه الاتهامات الموثقة.. ولكن جاءت الردود البلغارية تتسم بالبرود واللامبالاة، حتى لقد وجهت لتركيا اتهاماً بأنها تتدخل في شئونها الخاصة، ورفضت طلبها الخاص بهجرة الأتراك البلغار إليها، وبدأ واضحاً أن الحكومة البلغارية مصرة على السير في بلغة الأتراك والقضاء عليهم حتى النهاية، مما اضطر الرئيس التركي إلى التصريح في مقر الجمعية التركية - الأمريكية بواشنطن بأنه ما لم يتوقف

(1) Ibid. p. 31.

التعنت البلغاري، فسوف ينظم حملة عالمية للتشهير بأسلوب حكمهم وتأليب العالم الحر عليهم لانتهاكهم مبادئ حقوق الإنسان. وعمت المظاهرات الشعبية والطلابية كل أنحاء تركيا صائحة: «الجيش إلى صوفيا»، وقام 300 طالب من جامعات إستانبول بالإضراب عن الطعام دفعًا للحكومة التركية إلى إنقاذ مسلمي بلغاريا. وفي الجانب الآخر، قبضت السلطات البلغارية على مجموعة من البلغاريين تظاهروا احتجاجًا على أعمال حكومتهم أمام السفارة الفرنسية، كما أعلنت حكومة باكستان مشاركتها تركيا قلقها من أجل مسلمي بلغاريا.

وفي أوروبا، أدان «جيتسا أدينولفي» - وكيل الأمين العام للمجلس الأوروبي - في مؤتمر صحفي له في باريس، الظلم البلغاري للأتراك المسلمين، كما صرح «جو كلارك» وزير خارجية كندا باستيائه من تصرفات بلغاريا الشيوعية⁽¹⁾. وحقيقة الأمر أنه لم يتوقف اضطهاد الأتراك في بلغاريا حتى بعد أن انهارت النظم الشمولية الشيوعية والدكتاتورية في العالم.. وإذا كانت هناك أصوات من الغرب من الذين يرفعون شعارات حقوق الإنسان والرحمة والإنسانية، إلا أن ما يحدث لا تنهيه تلك الشعارات، كما أن تهجير المسلمين البلغار إلى تركيا لا يعتبر حلًا قانونيًا، لأن القانون الدولي يضع بنودًا خاصة بأوضاع الأقليات العرقية والدينية بما يكفل لها حقوق المواطنة ويحميها من تعنت الأغلبية، ولا توجد دولة - سواء في الشرق أو الغرب - لا يتعايش فيها أكثر من

(1) محمد حرب، المسلمون في آسيا الوسطى والبلقان، مرجع سابق، ص 192.

أقلية سكانية، سواء كانت دينية أو عرقية أو عنصرية.. كما أنه بعد سقوط الشيوعية في الاتحاد السوفيتي وانهيار توابعها في أوروبا الشرقية، لم يتوقف اضطهاد الحكام الجدد للمسلمين، وإن خفت الأصوات الأوروبية التي سبق أن احتجت على الحكم الشيوعي ونددت بسياساته المجحفة بالأقليات، الأمر الذي يؤكد أن الاتجاهات الإنسانية السالف بيانها كانت لها أسبابها السياسية المختلفة، أما الآن فقد تدخلت عوامل أخرى تدفع الأوروبيين للتغاضي عن هول ما يعانيه المسلمون من حكامهم المسيحيين.

المسلمون في البوسنة والهرسك تحت الحكم المسيحي

بعد انسحاب الأتراك من البوسنة والهرسك بعد حكم استمر أربعة قرون، انضمت المنطقة إلى إمبراطورية النمسا، حيث بدأ القهر النمساوي للمسلمين، وانصرفت الجهود إلى تهجير الأتراك، وبدأ الدور الفعلي لعداء الرأي العام الأوروبي للدولة العثمانية والأتراك والمسلمين في الولايات البلقانية.

ولما كانت معاهدة 1878 قد نصت على بقاء ولاية البوسنة تحت الحاكمية العثمانية على أن تحتلها وتديرها النمسا، فمعنى هذه المادة خروج ولاية البوسنة من الإمبراطورية العثمانية. ولكن في عام 1908م، أعلن «فرنسوا الأول» إمبراطور النمسا بياناً بضم البوسنة والهرسك إلى بلاده في نفس اليوم الذي أعلن فيه «فرديناند» أمير بلغاريا ووالي ولاية الرومللي

نفسه ملكًا على بلغاريا، مُلقبًا نفسه بقيصر البلغار. وإزاء التعنت النمساوي في حكم المسلمين، قام أحد البوسنيين - «على فهمي جابيح» - بالاحتجاج على حكومة النمسا، وانضم إليه الصرب الأرثوذكس الذين رأوا في النفوذ النمساوي عرقلة لطموحاتهم في إنشاء صربيا الكبرى التي تضم الصرب والبوسنة والهرسك والجبل الأسود، وكانت النمسا لا تزال تنظر إلى الصرب كإحدى ولايات الإمبراطورية النمساوية. وتمكن المسلمون من الحصول على بعض الامتيازات الدينية في 15 من أبريل عام 1909. وبعد الحرب العالمية الأولى وما نتج عنها من هزيمة وتفسخ الإمبراطورية النمساوية التي قامت من خلالها دولة يوغسلافيا وجمعت بين أكثر من قومية عرقية دينية، أصبحت دولة مركبة من الصرب والكروات والبوشناق.. ولما كانت هذه القوميات قد عاصرت على مدى تاريخها الطويل نظرًا سياسية مختلفة للدولة العثمانية ثم النمسا والمجر، ومن قبلها الإمبراطورية البيزنطية الأرثوذكسية، فقد انتشرت تبعًا لذلك في هذه المناطق عادات وتقاليد متباينة، فضلًا عن الاختلافات الدينية، فكان الصرب من الأرثوذكس والكروات كاثوليك، والبوشناق مسلمين.. حتى قامت دولة يوغسلافيا (ومعناها اللفظي: السلاف الجنوبيون).

ومضت سياسة الدولة الجديدة في نفس اتجاه دولة بلغاريا ورومانيا في اضطهاد المسلمين واتخاذ التهجير أسلوبًا للتخلص منهم.

كما اضطرت الدولة الجديدة (يوغسلافيا) لتهدئة القوميات المختلفة بتقسيم الدولة إلى أقليات ذات نوع من الحكم المحلى، فتكونت جمهوريات فيدرالية للبوسنة والهرسك، وكرواتيا، والجبل الأسود، والصرب، وسلوفينيا، ومقدونيا.

واستطاع المسلمون في ذلك المناخ تأسيس حزب إسلامي يوغسلافي عام 1919 برئاسة الدكتور «محمد سباهو» الذي تولى رئاسة الحكومة اليوغسلافية فترة زمنية ما بين الحربين العالميتين، وكادت أحوال المسلمين تستقر، حتى تم تتويج «ألكسندر الأول» عام 1931 ملكًا على الصرب الكروات، فشرع في اضطهاد المسلمين حتى انتهى الأمر باغتياله في مارسيليا بفرنسا. وجاء خلفه «بطرس الثاني» الذي كان صغير السن تحت الوصاية. وانشغلت الدولة بالصراع مع بلغاريا التي تساندها ألمانيا، فسعت للتقارب مع حكومة تركيا، وتم عقد معاهدة بشأن تهجير مسلمي يوغسلافيا نظير تعويضات مالية رغم احتجاج هؤلاء المسلمين على مبدأ مغادرتهم بلادهم؛ ولذلك انتهزت السلطات اليوغسلافية حادث مقتل محافظ سابق يدعى «يوشكويو سكوفيتش» على مقربة من مدينة كولاشين فاتهمت المسلمين بقتله، وأقامت مذبحه رهيبه، حيث قُتل أكثر من 600 مسلم⁽¹⁾ من النساء والأطفال، وهرب بقية الأهالي من المسلمين من قريتي شاهوفيتش وبافيتو بولييه (عدددهم 120 أسرة، و400 شخص من دون

(1) محمد حرب: البوسنة والهرسك من الفتح حتى الكارثة، مرجع سابق، ص 77.

أسرة). ووضعت الحكومة خطة لتهجير أعداد ضخمة من المسلمين، إلا أن اشتعال الحرب العالمية الثانية حال دون تنفيذ المخطط الإجرامي. وقد انتهز الأرثوذكس ظروف الحرب للتنكيل بالمسلمين، بل إنهم مع نهاية الحرب - وتحت شعار الإصلاح الزراعي - صادروا جميع أراضي المسلمين وأعطوها للفلاحين الأرثوذكس⁽¹⁾، كما قضى المسيحيون على المدارس والكتاتيب، وقاموا بهدم الكثير من المساجد وإقامة منشآت كمسارح ونواد للخييل في أماكنها، حتى مقر البرلمان اليوغسلافي نفسه كان مسجد "بثار" الذي كان أجمل مسجد في بلجراد، وفندق بالاس كذلك بُنى على أنقاض مسجد⁽²⁾، وهَلُمَّ جَرًّا.. والمسجد الوحيد الذي نجا من التحطيم بقي لأنه كان أول مسجد بُنى في بلجراد، فأعطته الدولة لهيئة الآثار. ومن المعروف أن بلجراد في القرن السابع عشر كانت مدينة إسلامية زاهرة، وعندما زارها الرحالة التركي «أوليا شلبي» سنة 1600، كان عدد سكانها مائة ألف نسمة، ثلاثة أرباعهم من المسلمين⁽³⁾، وكان بالمدينة 270 مسجداً، و8 مدارس ثانوية إسلامية، و17 تكية، والعديد من الكتاتيب القرآنية.

ويشكل المسلمون في يوغسلافيا أكبر جماعة إسلامية في أوروبا على وجه الإطلاق. والمسلمون في البوسنة يبلغون 45% من مجموع السكان،

(1) عماد حرب، المرجع السابق، ص 76.

(2) المرجع السابق، ص 76.

(3) المرجع السابق، ص 75.

وتعتبر بوسنة سراي أوكا - التي يطلق عليها الغرب سراييفو - عاصمة الإسلام في يوغسلافيا، وتضم مجلس العلماء المسلمين في يوغسلافيا ومقر جماعة إسلامية هامة، ويوجد بها حوالي 90 مسجداً. وقد بلغ عدد المسلمين في يوغسلافيا عام 1980: 4.5 مليون نسمة⁽¹⁾.

سيطرة الشيوعيين على الحكم واستمرار معاناة المسلمين

لم تكن منطقة يوغسلافيا ذات نشاط شيوعي بين الحربين العالميتين، وقد خلت تماماً من الشيوعيين رغم جهود «ستالين» في تكريس الإحساس بالدور السوفييتي في حماية بلغراد من الألمان، حتى نجح في إيصال «جوزيف بروز تيتو» إلى حكم يوغسلافيا كبداية للنظام الشيوعي في البلاد⁽²⁾، وبدأ حكمه باضطهاد المسلمين، على حين حظى الكروات بتأييد «هتلر» حاكم ألمانيا آن ذاك، وقامت دولتهم في حمايته بين عامي 1941 و1944. ومرة أخرى عادت الدولة الشيوعية الروسية في اللعب بالورقة الرابعة والتدخل في منطقة البلقان عن طريق عملائها التقليديين من الصرب، ولا سيما أن الكروات كانوا منضمين لألمانيا. وقد أثارت أعمال «هتلر» الانتقامية من اليهود بمشاركة الكروات، أن اندفع هؤلاء إلى تدعيم الصرب ضد الكروات، وافتعل اليهود العديد من المذابح لإثارة الرأي العام تذكياً لجهودهم في إنشاء دولة إسرائيل في فلسطين. هذا، وقد

(1) محمد حرب، المسلمون في آسيا الوسطى والبلقان، ص 215.

(2) محمد حرب، المرجع السابق، ص 219.

استغل الشيوعيون العداء بين الصرب والكروات والتنافس بين كنيستيهما لكي يسيطروا السيطرة الشيوعية، كما تقرب كلٌّ من الفريقين المتنافسين نحو المسلمين في البوسنة والهرسك لاستقطابهم إلى جانبه، وتفاوتت نسبة عداوة الفريقين للمسلمين، فكان الصرب أكثر عداوة من الكروات؛ نظرًا لأن الكروات كانوا يتبعون الإمبراطورية النمساوية منذ فترة طويلة، بعكس الصرب الذين رزحوا قرونًا طويلة تحت حكم الدولة العثمانية، وذلك ما أوغر صدورهم ضد مسلمي البوسنة. وقد أدى التصادم بين الكروات والصرب إلى إنهاء تفوقهما العددي كحزب واحد في مواجهة المسلمين عندما تعذر استقطابهم لأيٍّ من الطرفين، فاضطروا إلى الاعتراف بالقومية البوسنية المسلمة.

وأصبح المسلمون بذلك أكثرية، فشكّلوا عام 1967: 2% من عدد السكان. وقد حصل المسلمون على رئاسة المجلس الفيدرالي، كما أصبح لهم - رغم العقبات - 56 مدرسة ابتدائية و5 مدارس ثانوية و7 مدارس لتدريب المعلمين، وانتشرت المساجد في جميع القرى البوسنية، وفي سراييفو وحدها كان هناك أكثر من 70 مسجدًا. ولأن الحكومة الشيوعية كانت تعادي جميع الأديان، إلا أن الحماية النمساوية على الكروات كانت تخفف من ضغط الشيوعية عليهم، وكذلك الحماية التقليدية لبريطانيا على الصرب حماهم من اضطهاد الحكم الشيوعي. وتعرّض البوسنيون فقط للضغط الشيوعية المختلفة لابتعاد الدول الإسلامية عن مؤازرتهم؛ فقد

حفلت تلك الحقبة بضغوط دولية واستعمارية على الدول العربية، بل مما يؤسف له أن سارت الدول العربية بعيداً عن مضمون الدولة الإسلامية وانسأقت وراء المخططات الأوروبية والصهيونية، وأصبح التوجه الإسلامى نوعاً من الرجعية والتأخر، فيما حظيت العنصرية الصهيونية بتأييد العالم، واتهموا مخالفينهم بالعداء للسامية. ولم يتورع الرئيس «تيتو» مع ذلك عن التقرب من بعض الدول العربية والإسلامية وإقامة علاقات صداقة مع حكامها. ويذكر المؤرخ «محمد حرب» أنه أثناء وجود الرئيس المصرى «جمال عبد الناصر» لحضور أحد المؤتمرات في بلجراد بشأن عدم الانحياز وغيره من الشعارات السياسية، وقف «تيتو» ودعا المجتمعين إلى الوقوف حداً على مقتل متهم شيوعى مصرى في أحد السجون المصرية، الأمر الذى دفع الرئيس المصرى إلى إعلان جهله بهذا الأمر، واستنكر مبدأ استخدام العنف مع الشيوعيين في مصر، دون أن يحاول أن يسأل بدوره عن هول المذابح التى تقع على المسلمين في البوسنة تحت حكم الرئيس «تيتو»⁽¹⁾

كما اتجه الحكم الشيوعى إلى بَلْشَفَةِ المسلمين بالاضطهاد الثقافى، وذلك بمنع الدين الإسلامى من أن يدرَّس في المدارس، وتشويه الكتب الدينية بكتابات ذات مفهوم ماركسى، إضافة إلى الاضطهاد والتعذيب الجسدى في السجون المظلمة⁽²⁾.

(1) محمد حرب، المسلمون في آسيا الوسطى والبلقان، المرجع السابق، ص 215.

(2) المرجع السابق، ص 218.

وهكذا لم يجد الشباب المسلم مخرجًا في يوغسلافيا، فإما أن يجارى التيار ويعتنق الكاثوليكية أو الأرثوذكسية، أو يتجه إلى الشيوعية! ويدفعنا كل هذا إلى تأمل حكم المسلمين العثماني السابق في البلقان، وكيف كان المجتمع الإسلامى يأخذ بالمبادئ الرئيسية لعقيدته في حماية حق ممارسة العقيدة الدينية واحترام الاتفاقيات والعهود الدولية.

أما بشأن الممارسات العدائية للحكم الشيوعى في مجالات التعليم والثقافة ومصادرة الكتب التركية، فقد استندوا إلى أن الرأسماليين ينشرون الدعاية الرأسمالية في كتب الحساب والرياضيات. وكما حدث في بلغاريا، فقد تعرضت المدارس والمساجد للنهب، وعندما حدث زلزال عام 1966 في يوغسلافيا، لم تسمح السلطات بترميم المساجد التى تهدمت. وفي عام 1972، أعادت الحكومة للمسلمين بعض مساجدهم ومدارسهم، كمدرسة الأمير «خورشيد» التى أنشئت في بوسنة سراى منذ 450 عامًا، ويدرس بها 300 طالب العلوم الدينية. واعترفت كذلك الدولة - إزاء الصراعات المتواصلة بين الكروات والصرب - بالمسلمين كقومية خاصة، وإن لم تسمح لهم - رغم ذلك - بأي إنشاءات عمرانية جديدة⁽¹⁾.

وقد يشور تساؤل عما إذا كانت الدولة تنظر إلى المواطنين البوسنيين

(1) محمد حرب، البوسنة من الفتح...، ص 81.

كأتراك مسلمين أم كسلاف اعتنقوا الدين الإسلامى وتزاوجوا مع الأتراك؟ فإن حسم هذه النقطة يوضح أهمية التعامل السلافى - والأوروبى بصفة عامة - نحو مشكلة مسلمى البوسنة والهرسك، فإمكانية السيطرة على العناصر العرقية المختلفة من الممكن أن تتم إذا ازدادت قوة إحداها، أما السيطرة على المعتنق الدينى - خاصة الإسلام - فصعب تحقيقه. ويمكن القول بأن الصراع ضد البوسنة ليس صراعاً مضاداً لجنس أو قومية، إنما هو صراع دينى بكل أبعاده⁽¹⁾.

وفى إحصائية عام 1971، كانت أعداد المسلمين فى جمهورية يوغسلافيا كالآتى:

الجمهورية	عدد المسلمين	نسبتهم المئوية
البوسنة والهرسك	1.451.000	41.5%
ولاية قوصوه	1.010.000	80%
مقدونيا	418.000	25%
صربيا	300.000	6%
كرواتيا	124.000	8%
الجبل الأسود	119.000	22%

(1) صحيفة الأهرام، الجمعة 15 من أبريل عام 1994، مقال «أسطورة بارزة، لأحمد بهجت، ص 2.

كما نعرض أيضًا في ما يلي جدولًا بتزايد أعداد مسلمي البوسنة:

سنة 1931	1953	1971	الزيادة %
البوشناق 1.011.000	1.117.000	2.230.000	400% ⁽¹⁾

(1) محمد حرب، البوسنة من الفتح حتى الكارثة، ص 80.

المراجع

أولاً: المراجع العربية

- 1 - إبراهيم رزقانة: الجغرافيا الإقليمية للعالم الإسلامى، تركيا: دار المشرق العربى.
- 2 - أحمد عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى، دار الشروق، 1402هـ / 1982م.
- 3 - إرنست أرامزور: ثورة تركيا الفتاة وثورة 1908، ترجمه صالح العلى، وقدم له وراجعته نقولا زيادة، مكتبة الحياة، بيروت 1906م.
- 4 - أميرة كامل الخربوطلى: الدور السياسى للعسكريين فى تركيا، رسالة ماجستير، إشراف د. فتح الله الخطيب، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة 1972.
- 5 - بول كولنز: العثمانيون فى أوروبا، تعريب عبد الرحمن الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993م.
- 6 - بيير رينو: مستقبل الشرق الأوسط، المكتب التجارى للطباعة.

- 7 - جلال يحيى: تاريخ العالم العربى الحديث، منشأة المعارف، الإسكندرية.
- 8 - جلال يحيى: معالم التاريخ الحديث.
- 9 - جلال يحيى: أوروبا المعاصرة، دار الكتب الجامعية، 1974.
- 10 - جلال يحيى: التاريخ الأوروبى الحديث والمعاصر، المكتب الجامعى الحديث، 1983.
- 11 - جلال يحيى ونصر مهنّا: مشكلة قبرص، دار المعارف، 1981.
- 12 - جمال حمدان: العالم الإسلامى المعاصر، عالم الكتب.
- 13 - جرانت ووتمبرلى: أوروبا فى القرن التاسع عشر والعشرين 1789 - 1950، ترجمة جمال فهمى، مراجعة أحمد عزت عبد الكريم، مؤسسة سجل العرب 1979م.
- 14 - حسين لبيب: تاريخ المسألة الشرقية، مطبعة الهلال، القاهرة 1931م.
- 15 - ساطع الحصرى: البلاد العربية والدولة العثمانية، جامعة الدول العربية، بيروت 1965م.
- 16 - عبد العزيز محمد الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1978م.
- 17 - على حسنى الخربوطلى: أضواء جديدة على تاريخ العالم الإسلامى، معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة 1978م.

- 18 - على ماهر: القانون الدولي، مطبعة الاتحاد 1345 هـ / 1934 م.
- 19 - عمر طوسون «الأمير»: الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم 1853 - 1855 م.
- 20 - فاضل حسين: محاضرات عن معاهدة لوزان، معهد الدراسات العربية.
- 21 - قدرى قلعجي: مدحت باشا أبو الدساتير وخالع السلاطين، دار العلم للملايين.
- 22 - لطيفة محمد سالم: مصر في الحرب العالمية الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984 م.
- 23 - لوردوديق دقونياسون: أناضوليا إصلاحات، سوريا مسألة، ترجمة راغب رفقي، ناشري اعتماد كتخانة.
- 24 - محمد فؤاد كوبريلي: قيام الدولة العثمانية، سلسلة الألف كتاب الثانى (119)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993 م.
- 25 - محمد رفعت ومحمد حسن حسونة: معالم التاريخ من العصور الوسطى، مطبعة مصر، القاهرة، ج 1.
- 26 - موفق بن المرجه: صحوة الرجل المريض، مؤسسة صقر الخليج للطباعة والنشر بالكويت، 1984 م، ط 1.
- 27 - محمد حرب: البوسنة والهرسك من الفتح حتى الكارثة، المركز المصرى للدراسات العثمانية والبحوث التركية، 1993 م.

28- محمد حرب: المسلمون في آسيا الوسطى ودول البلقان، المركز العربى للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركى، 1993م.

29- محمد حرب: المسلمون المفترى عليهم، مجلة العربى الكويتية، العدد 244.

30- محمد صفوت: الاحتلال الإنجليزى لمصر وموقف الدول الأوروبية إزاءه.

31- محمد غنيم: لب التاريخ، القاهرة 1307هـ.

32- محمد كمال الدسوقي: الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، دار الثقافة والنشر، القاهرة 1976م.

33- محمد محمود السروجى: مصر والمسألة الشرقية، مطبعة المصرى، 1966.

34- محمود ثابت الشاذلى: دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية 1922- 1923، مكتبة القاهرة.

35- نجيب صالح: تاريخ العرب السياسى 1856- 1956م، دار اقرأ، 1985م.

36- هريبرت فيشر: أصول التاريخ الأوروبى الحديث من النهضة الأوروبية حتى الثورة الفرنسية، دار المعارف.

ثانيًا: المذكرات

- مذكرات السلطان عبد الحميد الثانى، إعداد محمد حرب، كتاب الهلال، العدد 84.

- مذكرات السفير الأمريكي بالأستانة، مستر هنرى فرغنتو، تعريب فؤاد صروف، مطبعة المقطم، 1923م.

ثالثًا: الدوريات

- جريدة الوفد، ربيع الأول، 1415هـ - 1994م.

- جريدة الأهرام، 15 أبريل 1994م.

رابعًا: المراجع الأجنبية

- 1- Mindelstion; le sort de l' empire Ottoman payot- paris, 1914.
- 2- Bilal N. Simsa; the turks of Bulgaria, 1878-1885. London 1984.
- 3- Driault Edward; La Question d' orient, 7 ed; Filese Algan 1914.
- 4- Prelage general Deberney; La marche sur paris; payot. Paris 1929.
- 5- Colonel Lamouche; Histoire de La nouvelle Turquie. Paris.
- 6- Livre jaune; Affaires Balkaniques 1912.
- 7- Lieutenant colonel Malterne; L' Armee jeuces Turkues; Revues de sciences politiques 1914.

الأصول التاريخية للمسلمين في البلقان

الوثائق غير المنشورة

Documents Diplomatiques Francaises conference et
protocole de Lausanne de Lausanne 1922-1923.

